ليلى سليماني

أغنية هادئة

رواية

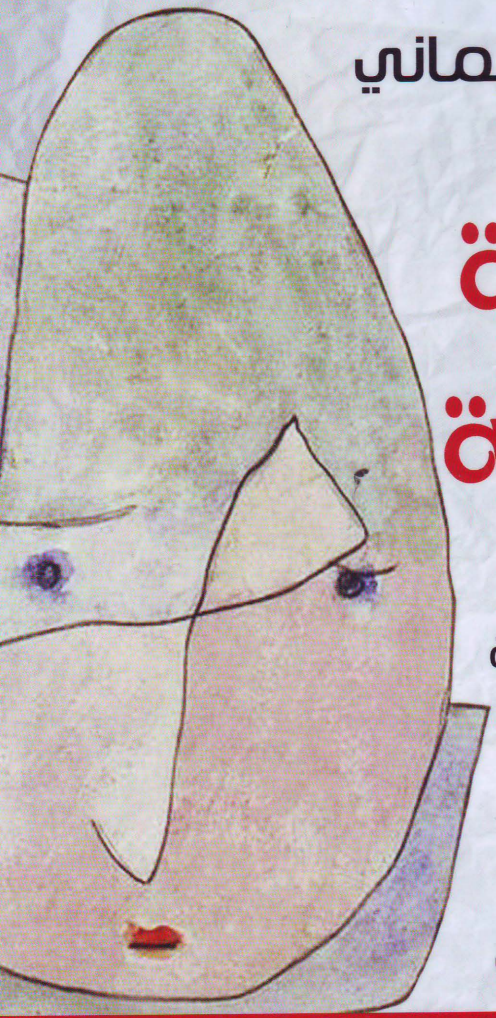

المركز الثقافي العربي

جائزة غونكور 2016

الكتاب

أغنية هادئة

تأليف

ليلى سليماني

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى، 2017

الإيداع القانوني:

2017MO0277

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9981-72-035-0

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

نُشر هذا الكتاب بدعم من

وزارة الثقافة

المملكة المغربية

وزارة الثقافة

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ

العنوان الأصلي للرواية:

Leïla Slimani

Chanson douce

© Éditions Gallimard, Paris, 2016

All rights reserved

ليلى سليماني

أغنية هادئة

رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

إلى إميل...

جاءت الآنسة فيزي من وراء الحدود للعناية بأطفال إحدى السيّدات [. . .] وصرّحت السيّدة أنّ الآنسة لا تصلح لشيء، خمولة وغير نظيفة. لم يخطر في بالها قطّ أن للآنسة فيزي حياتها الخاصة، وشؤونها التي تؤرقها، وأنّ هذه الشؤون هي أهمّ شيء في حياتها.

روديارد كيبلينغ،
حكايات بسيطة من التلال.

وتبادر إلى ذهنه فجأة السؤال الذي طرحه عليه مارميلادوف في الليلة السابقة.

«أتفهم يا سيدي؟ أتعرف معنى ألا يكون للمرء مكان يذهب إليه؟ لأنه يلزم كلّ شخص مكان يأوي إليه».

دوستويفسكي،
الجريمة والعقاب

توفي الرضيع. لم يستغرق موته سوى بضع ثوان. وأكّد الطبيب أنّه لم يتألّم. وضعوا جثّته المفككة الأوصال، التي كانت تطفو فوق الماء مع اللُّعب، في كيس رمادي وأغلقوه. أمّا الطفلة الصغيرة، فكانت لا تزال حيّة عند وصول النجدة. دافعت عن نفسها بشراسة، وقد عثروا على ما يدلّ على مقاومتها: قِطَعاً من البشرة تحت أظافرها الطريّة. كانت وهي في سيارة الإسعاف التي نقلتها إلى المشفى متشنّجة وشديدة الاضطراب. بدت بعينيها الجاحظتين كما لو أنّها تختنق. فقد امتلأ حلقها دماً، وثُقِبت رئتاها، واصطدم رأسها بعنف بالمنضدة الزرقاء الموجودة في غرفة النوم.

صوّروا مسرح الجريمة، وأخذوا البصمات وقاسوا مساحة الحمام وغرفة الطفلين. كان السجاد على الأرض مبتلاً بالدم، وطاولة تغيير الحفاظات مقلوبة تقريباً. أمّا اللُّعب فأودعوها في أكياس بلاستيكية شفّافة، وختموا عليها. واحتفظوا حتّى بالمنضدة الزرقاء لأنّها ستفيد في المحاكمة.

كانت الأمّ مصدومة. هذا ما قاله رجال المطافئ، وردّدته

الشرطة وكتبته الصحافة. حين دخلتْ إلى الغرفة التي كان يرقد فيها طفلاها بلا حراك، ندّت عنها صرخة آتية من الأعماق، أشبه بعواء ذئبة، اهتزّت لها الجدران. وحين خيَّم الظلام تلك الليلة من ليالي مايو تقيّأت. وقد اكتشفتها الشرطة على هذه الحال، بملابسها المتّسخة، مقرفصة وهي تشهق كالمخبولة. وراحت تصرخ حتّى كادت تمزّق رئتيها. أومأ سائق سيارة الإسعاف برأسه خلسة، فأوقفوها رغم مقاومتها وتخبّطها، ثمّ حملوها بمهل، وحقنتها طبيبة الإغاثة المتدرّبة بعقارٍ مهدِّئ.

كان عليهم أن ينقذوا المرأة الأخرى أيضاً، بنفس المهنيّة ونفس الموضوعيّة. لم تنجح في قتل نفسها نجاحها في قتل الطفلين. صفدت مِعصمَيها، وغرزت السكين في عنقها، ففقدت الوعي وسقطت مغمى عليها بجانب سرير الرضيع. أجلسوها، جسّوا نبضها وقاسوا ضغطها، ثمّ حملوها على النقالة، بينما ظلّت الطبيبة المتدرّبة ضاغطة بيدها على عنقها.

اجتمع الجيران أسفل العمارة، معظمهم من النساء، رغم أن وقت جلب الأطفال من المدرسة قد حان، لكنّهن ظللن يتطلّعن إلى سيارة الإسعاف بعيون تورّمت من البكاء. كنّ يبكين وهنّ متلهّفات لمعرفة ما وقع. لهذا مضين يقفن على أطراف أصابع أقدامهنّ، ويشرئبن برؤوسهنّ عساهنّ يميّزن شيئاً مما يقع خلف الشريط الذي نصبته الشرطة، وداخل سيارة الإسعاف التي انطلقت وهي تصفّر عالياً. كنّ يتهامسن ببعض الأخبار. ذلك أنّ الإشاعة قد بدأت تنتشر: الطفلان أصابهما مكروه.

إنّها عمارة أنيقة تقع في شارع هوتفيل بالدائرة العاشرة.

عمارة يتبادل فيها القاطنون التحيّة بحرارة حتّى من دون أن يتعارفوا. أمّا شقة آل ماسي فتقع في الطابق الخامس، وهي أصغر الشقق في الإقامة. وقد نصب بول ومريم جداراً فاصلاً في وسط الصالون عند ميلاد طفلهما الثاني. وهما ينامان في غرفة مجاورة، تقع بين المطبخ والنافذة المطلّة على الشارع. ومريم تحبُّ الأثاث ذا الألوان الزاهية والزرابي الأمازيغية، وقد علّقت على الجدار لوحات يابانية.

عادت هذا اليوم إلى البيت قبل وقتها المعتاد. اختصرت اجتماعاً، وأرجأت إلى اليوم الموالي دراسة أحد الملفات. قالت في نفسها وهي جالسة على مقعد جانبيٍّ في عربة ميترو الخط 7 إنها ستُعدّ مفاجأة للطفلين. هكذا مرّت على المخبزة قبل أن تدخل إلى الشقة، واشترت خبزة وحلوى للأطفال وكعكة بالبرتقال للمربّية. فهي تعشق هذا النوع من الكعك.

كانت تنوي إخراجهما ليلعبا في الأرجوحة الدوّارة، ثمّ تأخذهما معها لشراء ما يلزم للعشاء. ستطالبها ميلا بأن تشتري لها لعبة، وسيمصّ آدم قطعة خبز وهو في عربته.

لكن آدم مات، وميلا تلفظ أنفاسها الأخيرة.

«لا أقبل بالمهاجرين السرّيين، اتفقنا؟ قد لا أمانع لو تعلّق الأمر بخادمة أو أيّ عامل أو حِرفيّ. أنا أتفهّم ضرورة توفير الشغل لهؤلاء الناس أيضاً، لكنّ العناية بالأطفال شيء في منتهى الخطورة. لا أريد شخصاً يخشى دعوة الشرطة أو الاتصال بالمشفى إن وقع طارئ. لا أقبل أيضاً مربّية طاعنة في السن ولا محجّبة ولا مدخِّنة. علينا أن نختار امرأة تعمل بجدّ لنستطيع نحن أيضاً أن نعمل بجدّ». كان بول قد هيّأ كلّ شيء، ووضع قائمة أسئلة، وخطّط لأن تدوم كلّ مقابلة ثلاثين دقيقة. وهكذا تفرّغا بعد ظهر يوم السبت لانتقاء مربّية لطفليهما.

بينما كانت مريم تتحدّث مع صديقتها إيما عن أبحاثها قبل ذلك بأيّام، اشتكت لها من المرأة التي تتكفّل بأطفالها. «المربية لها ولدان هنا، ومن ثمّة لا تستطيع أبداً أن تتأخّر أو أن تعتني بالأطفال خارج أوقات عملها. لهذا فهي غير مناسبة. لا تنسي هذا الأمر خلال المقابلات. إن كان لها أطفال، فمن الأفضل أن يكونوا في بلدها». شكرتها مريم على النصيحة، لكنّ هذا الكلام أزعجها في الواقع. لو تحدّث مشغّلٌ عنها أو عن إحدى صديقاتها

بهذا النحو، لصرخت في وجهه، واتّهمته بالمَيز والعنصرية. فهي تستفظع فكرة حرمان امرأة من العمل بسبب أطفالها. وفضّلت ألا تبوح بذلك لبول، لأنّه سيؤيد كلام إيما. فهو رجل براغماتي يضع أسرته ومستقبله المهني فوق كلّ اعتبار.

خرجت الأُسرة جميعها هذا الصباح للتسوّق. اعتلت ميلا كتفي بول بينما نام آدم في عربته. اشترى الوالدان الزهور، وها هما الآن يرتّبان الشقّة. أرادا أن يظهرا في أحسن صورة أمام المربّيات اللواتي سيتعاقبن على البيت. جمعا الكتب والمجلات المرميّة على الأرض، ورتّباها تحت سريرهما وكذلك في الحمام. وطلب بول من ميلا أن تجمع لعبها المتناثرة في صناديق بلاستيكية كبيرة. لكنّها رفضت وهي تتباكى، فلم يجد بدّاً من أن يكدّسها بمحاذاة الجدار. ثمّ طويا ملابس الصغيرَين، وغيّرا غطاء الأسرّة. نظّفا المكان، وتخلّصا ممّا لا حاجة لهما به، وحاولا يائسين تهوية هذه الشقة الضيّقة. حَرصا على أن يظهرا للمربيات بمظهر زوجين طيبين وجادّين ومنظّمين، يجتهدان في أن يوفّرا لطفليهما أفضل حياة.

نامت ميلا وآدم، بينما جلست مريم وبول على طرف سريرهما متوتّرين ومنزعجين. لم يسبق لهما أن عهدا بالطفلين لأحد. حبلت مريم بميلا لمّا كانت تنهي دراستها في كلية الحقوق، وحصلت على دبلومها أسبوعين قبل أن يأتيها المخاض. أما بول، فكان يُجري التدريب بعد التدريب وهو مفعم بذلك التفاؤل الذي حمل مريم على التعلّق به عند لقائهما الأوّل. كان واثقاً من أنّه قادر على العمل وإعالة أسرته بمفرده، ومتيقّن

من قدرته على شقّ طريقه في مجال الإنتاج الموسيقي رغم الأزمة وسياسة التقشف.

* * *

كانت ميلا رضيعة ضعيفة ومشاكسة، لا تكفّ عن البكاء، ولم يكن وزنها ينمو. ترفض ثدي أمّها وزجاجات الإرضاع التي يهيّئها أبوها. ولمّا كانت مريم تُحني على مهدها، تنسى العالم الخارجي. ولم يكن طموحها يتجاوز زيادة وزن هذه البنت الهزيلة البكّاءة ببضعة غرامات. ومضت الشهور من دون أن تنتبه مريم لمرورها. لم تكن هي وبول يفارقان ميلا أبداً، ويتظاهران بعدم ملاحظة انزعاج أصدقائهما من ذلك، وتهامسهم من خلف ظهريهما بأنّ الرضيعة لا مكان لها في الحانات أو على مقاعد المطاعم. ومع ذلك كانت مريم ترفض رفضاً باتّاً الحديث عن امرأة تعتني بالطفلة أثناء غيابهما. هي وحدها القادرة على تلبية حاجيات ابنتها.

ولم تكد ميلا تكمل عاماً ونصف حتى حبلت مريم من جديد. وظلّت تزعم أنّ ذلك حدث من دون إرادتها. كانت تقول لصديقاتها وهي تضحك: «الحبوب لا تقي من الحمل مئة في المئة». والواقع أنّها تعمّدت هذا الحمل. ذلك أنّ آدم كان بالنسبة إليها ذريعة لكي لا تغادر حياة البيت الناعمة. أمّا بول فلم يُبدِ أيّ اعتراض. كان بالكاد عثر على شغل كمساعد صوت في أحد الاستديوهات الشهيرة، وصارت نزوات الفنانين وأوقات عملهم تشغل نهاراته ولياليه. وبدت زوجته مبتهجة بهذه الأمومة الغريزيّة،

تشعر بنفسها محميّة داخل هذه الشرنقة بعيداً عن العالم وعن الآخرين.

ثمّ بدأ الزمن يبدو ثقيلاً، وتعطّلت فجأة الآلة الأُسرية. فوالدا بول اللذان دأبا على مساعدتهما عند ولادة البنت، صارا يقضيان وقتاً أطول في بيتهما الريفي الذي أجريا فيه إصلاحات كبيرة. وقبل أن يأتي مريمَ المخاضُ، سافرا لثلاثة أسابيع إلى آسيا، ولم يُخطِرا بول بسفرهما إلا في آخر لحظة، وهو ما أغضبه غاية الغضب، وجعله يشكو لمريم أنانيّتهما وتقصيرهما. أمّا هي، فارتاحت للأمر. ذلك أنّها ضاقت ذرعاً بحماتها سيلفي. كانت تنصتُ لنصائحها وهي تبتسم، وتبلع ريقها لمّا تراها تفتش في الثلاجة، وتنتقد ما يوجد بها من أطعمة. كانت سيلفي تشتري الخسّ البيولوجي، وتحضّر الطعام لميلا، لكنّها تترك المطبخ في حالة من الفوضى العارمة. وبما أنّ لا شيء يجمع بينها وبين مريم، كان يخيّم على البيت جوّ من الانزعاج الشديد، ينذر بأن يتحوّل في أيّ لحظة إلى خصومة ضارية. وانتهى الأمر بمريم أن قالت لبول: «دعْ والديك يعيشان حياتهما. من حقّهما الاستمتاع بعد أن تحرّرا من جميع الأعباء».

لم تقدّر خطورة كلامها. فقد عقّد وجود الطفلين كلّ شيء: التسوّق والتحميم وزيارة الطبيب وأشغال البيت وتراكم الفواتير. وأظلمت الحياة في عيني مريم، وصارت تكره الخرجات إلى الحديقة. شرعت تبدو لها نهارات الشتاء طويلة بلا نهاية، وبدأت نزوات ميلا تضايقها. أمّا ثغثغات آدم فلم تعد تبالي بها. ويوماً بعد يوم كانت رغبتها في المشي وحيدة تتزايد، وودّت لو تخرج

إلى الشارع وتصرخ كالمجنونة. كانت تقول في نفسها أحياناً: «إنهم يفترسونني حيّة».

وبدأت تغار من زوجها. تنتظره بتوتّر خلف الباب في المساء، وتقضي ساعة وهي تتأفّف من صراخ الطفلين، وضيق الشقّة ورتابة الحياة. ولمّا كانت تسمح له بالكلام، ويروح يحدّثها عن حصص التسجيل المثيرة التي قامت بها فرقة هيب هوب، تنفجر في وجهه قائلة: «أنت محظوظ»، فيردّ: «كلا، أنت المحظوظة. تمنّيت لو أنّني أراهما يكبران أمام عيني». ولم يكن أيّ منهما ينتصر في هذه اللعبة.

وفي الليل كان بول يغطّ بجانبها في نوم عميق، نوم من كدّ طوال اليوم ويستحقّ من ثمّة أن يستريح. أمّا هي فتستسلم للمرارة والندم. تفكّر فيما بذلته من جهد لإنهاء دراستها رغم العوز وغياب مساعدة الوالدين، وتتذكر ما شعرت به من ابتهاج لمّا قبلتها نقابة المحامين، وارتدت بذلة المحاماة لأوّل مرّة، وبدت مزهوة وباسمة في الصورة التي التقطها لها بول أمام باب العمارة.

تظاهرت لبضعة أشهر بالصبر على هذا الوضع. لم تبح حتّى لبول بمقدار ما كانت تشعر به من خزي، وبمدى ما كانت تحسّ به من عذاب لأنّها لا تجدُ شيئاً تحكيه غير سخافات الطفلين وما تلتقطه أذناها من أحاديث الغرباء في السوبر ماركت. ثمّ شرعت ترفض دعوات العشاء، ولا تردّ على مكالمات الأصدقاء. كانت تحذَر النساء بخاصّة، نظراً إلى ما قد يُبدين من قسوة. وكانت تتملّكها الرغبة في خنق أولئك اللواتي يتصنّعن الإعجاب بها، ويتظاهرن بغبطتها. ولم تعد تطيق سماع شكواهنّ من العمل، ومن

غيابهنّ عن أطفالهنّ. وأخشى ما صارت تخشاه هم الغرباء. أولئك الذين يسألونها ببراءة عن مهنتها، ويغيّرون موضوع الحديث بمجرّد ما تخبرهم بأنّها ربة بيت.

* * *

وبينما كانت تتسوّق يوماً في متجر مونوبري الموجود في شارع سان دوني، تنبّهت إلى أنّها اختلست، بلا قصد، جوارب أطفال نسيتها في عربة ابنها. لم تكن تفصلها عن بيتها إلا بضعة أمتار، وكان بإمكانها أن تعيدها إلى المتجر، لكنّها أعرضت. ولمّا عاد بول لم تذكر له ذلك. كان أمراً سخيفاً، لكنّه شغل بالها واستحوذ على فكرها. ثمّ صارت بعد هذه الواقعة تتردّد كثيراً على مونوبري، وتخفي في عربة ابنها شامبو أو مرهماً أو أحمر شفاه، لن تستعملها أبداً. كانت تدرك تماماً أنّهم إن اكتشفوا أمرها، يكفي أن تمثّل دور الأم التي أرهقها الأطفال وأشغال البيت، فيصدّقون لا محالة حسن سريرتها. وهذه السرقات التافهة كانت تُشعرها بنشوة لا مثيل لها، فتروح تضحك بمفردها في الشارع وقد تملّكها شعور بأنّها تهزأ بالعالم كلّه.

* * *

ولمّا التقت صدفة بباسكال، وهو زميل سابق لها بكلية الحقوق، تطيّرت منه. لم يلحظها لأوّل وهلة: كانت ترتدي سروالاً واسعاً وحذاء بالياً. أمّا شعرها القذر فأمسكته بعقيصة. كانت واقفة قبالة حصان خشبيّ رفضت ميلا أن تتركه، وراحت

تردّد في كلّ مرّة تمرّ أمامها ابنتُها: «هذه آخر دورة». رفعت بصرها فإذا بها ترى باسكال يبتسم وقد فتح ذراعيه ابتهاجاً بلقائها غير المتوقّع. ابتسمت له هي أيضاً ويداها متشبثتان بالعربة. كان باسكال مستعجلاً، لكنه كان يقصد مكاناً غير بعيد عن مسكن مريم. اقترحت عليه: «كنت أفكّر في العودة إلى البيت، هل نسير معاً؟».

ارتمت مريم على ميلا، فمضت الطفلة تصرخ صراخاً حادّاً رافضة المغادرة. اجتهدت لكي تغتصب ابتسامة، وتظاهرت بأنّها تسيطر على الوضع. لم يتوقّف ذهنها عن التفكير في القميص البالي الذي ترتديه تحت المعطف، والذي لا بدَّ أن يكون باسكال لاحظ طوقه المتآكل. وراحت تمسح فودَيها على نحو محموم كما لو أنّ هذا يكفي لتسوية شعرها الجاف المشعث. لكن باسكال بدا غير مكترث بشيء من ذلك. حدّثها عن المكتب الذي فتحه بمعيّة صديقتين من فوجهما، ثمّ عن المصاعب والمسرّات التي يجدها المرء في الاشتغال لحسابه الخاص. كانت تنصت لكلام زميلها بشغفٍ كبير، لكنّ ميلا لم تكن تكفّ عن مقاطعته، وبدت مريم مستعدّة لفعل أيّ شيء من أجل إسكاتها. ومن دون أن تحوّل بصرها عنه، مضت تفتّش في حقيبتها لعلّها تجدُ مصّاصة أو حلوى أو أيّ شيء تشتري به صمتها.

لكن باسكال بالكاد نظر إلى الطفلين. لم يسألها عن اسميهما. حتّى آدم النائم في عربته، بوجهه الهادئ الرائع، لم يُثر -فيما يبدو- حنانه، ولم يؤثّر في مشاعره.

«هذا هو المكان الذي أقصده». وقبّلها على خدها وهو

يقول: «سعدت كثيراً بلقائك»، ثمّ دلف إلى إحدى العمارات. ولمّا صفق الباب الأزرق الثخين، انخلع قلب مريم، فأخذت تصلّي في صمت. انتابها هناك في الشارع إحباط شديد، وودّت لو تجلس أرضاً وتُجهش بالبكاء. ودّت لو تتشبّث بساق باسكال وتتضرّع إليه ليأخذها معه، ويمنحها فرصة للخروج من هذه الحياة الرتيبة. ولمّا عادت إلى بيتها، ساورتها كآبة شديدة. وراحت تحدّق في ميلا التي تلعب بهدوء، ثمّ حمّمت الرضيع، وقالت في نفسها إن هذه السعادة البسيطة الخرساء، سعادة الأسْر، لا تكفي لمواساتها. لا بدَّ أن يكون حالها أثارَ سخرية باسكال، بل قد يكون هاتفَ بعض زملاء الجامعة القدامى، وحدّثهم عن مريم التي تعيش حياة تثير الشفقة، «لا تشبه في شيء حياتها السابقة»، وأنّها «لم تحقّق النجاح المهني الذي كانت منذورة له».

لم يغمض لها جفن تلك الليلة، وباتت تتخيّل كلّ الأحاديث التي قد تكون دارت حولها. وفي الصباح، بينما هي خارجة من الحمام، سمعت إشارة رسالة نصية على هاتفها. «لست أدري ما إذا كنت تفكرين في العودة إلى المحاماة. إذا كان هذا يهمّك، يمكن أن نتداول فيه». كادت تهتف من الفرح. مضت تقفز في الشقّة وتقبّل ميلا التي قالت لها: «ماذا جرى يا ماما؟ لماذا تضحكين؟». وتساءلت فيما بعد عمّا إذا كان باسكال لاحظ عليها علامات الإحباط، أم أنّه اعتبر العثور على السيدة مريم شَرْفَة بالصدفة، الطالبة التي لم يرَ في حياته من تفوقها جدّية، ضربة حظ. ربّما دار في خلده أنّ تشغيل امرأة مثلها، وإعادتها إلى قاعات المحاكم، سيكون دليلاً على حسن طالعه.

فاتحت مريم بول في الموضوع، لكن ردّة فعله أصابتها بالإحباط. هزّ كتفيه وقال: «لم أكن أعلم بأنّك ترغبين في العمل». أثار هذا حفيظتها، وجعلها تستشيط غضباً. وسرعان ما لجَّ في الكلام، اتّهمته بالأنانية، ونعت هو سلوكها بمجانبة المنطق. قال هازئاً: «أنا لا أعترض على عملك، ولكن ماذا سنفعل بالطفلين؟». فرأت في ذلك استخفافاً بطموحها، وتأكيداً لشعورها بأنّها فعلاً محبوسة في هذه الشقّة.

ولمّا هدأ روعهما، درسا الاختيارات المتاحة أمامهما بتأنٍّ. كانا في نهاية شهر يناير، ومن ثمّة لم يكن لهما أمل في العثور على مكان للطفلين في دار حضانة تستقبلهما طوال الأسبوع أو بعض أيّامه. وهما لا يعرفان أحداً في البلدية. ثمّ إن هي استأنفت العمل، فسيجدان نفسيهما في وضع ماديّ حرج: راتباهما لن يسمحا بالاستفادة من إعانة الدولة، كما أنّ أجر المربّية سيمثّل عبئاً ثقيلاً على ميزانية الأسرة. وقرّ قرارهما في الأخير على البحث عن مربية بعدما قال بول: «باحتساب الساعات الإضافية، سيكون راتبك معادلاً تقريباً لراتب المربيّة. ولكن إذا كنت تقدّرين أنّ هذا سيساعدك على النجاح...» وقد تركت هذه المحادثة في نفسها شعوراً بالمرارة، وساورها إحساس بالحقد على بول.

* * *

أرادت أن تختار المربية وفق الأصول. وحتّى تطمئن، لجأت إلى وكالة تشغيل فتحت أبوابها مؤخّراً في الحي، عبارة عن مكتب

صغير مزيّن على نحو بسيط، تُسيّره شابتان في الثلاثينيات من العمر. كانت الواجهة المطلية بالأزرق الفاتح مزيّنة بنجوم وجِمال صغيرة مذهّبة. ضغطت مريم على الجرس، فرشقتها المسيّرة من خلال الزجاج بنظرة لا تخلو من ازدراء، ثمّ قامت متثاقلة، وأخرجت رأسها من فتحة الباب وقالت:

«نعم؟

- صباح الخير.

- هل ترغبين في التسجيل؟ نطلب ملفّاً متكاملاً. نهج سيرة وشهادات يوقّعها مشغّلوك السابقون.

- كلا، ليس لهذا جئت. أبحث عن مربية».

وتغيّرت ملامح المرأة تماماً.

وبمقدار ما بدت مبتهجة باستقبال الزبونة، ظهر عليها الانزعاج من نظرة الازدراء التي حدجتها بها في البداية. لكن كيف لها أن تصدّق بأنّ هذه المرأة المتعبة، ذات الشعر الكثيف المجعّد هي أمّ الطفلة الصغيرة الجميلة التي كانت تبكي على الرصيف؟

فتحت مُسيّرة المكتب كاتالوغاً كبيراً عكفت عليه مريم. فقالت الموظّفة: «اجلسي!» وتعاقبت تحت عينيها عشرات النساء، أغلبهنّ أفريقيات وفلبينيات، وهو أمر سلّى ميلا، فقالت: «انظري إلى هذه، إنّها بشعة، أليس كذلك؟» نهرتها أمّها ثمّ عادت وهي منقبضة النفس لتتفرّس تلك البورتريهات المطموسة المعالم التي لا يوجد بينها وجه واحد باسم.

شعرت بالاشمئزاز من نفاق تلك الموظّفة ومن وجهها المدوّر المحمرّ، والوشاح الرثّ الذي يلفّ رقبتها. كلّ شيء فيها يبعث على النفور. صافحتها مودّعة، ووعدت بأن تتشاور مع زوجها، لكنّها لم تعد إليها أبداً. وعوضاً عن ذلك، قامت بتعليق إعلانات بنفسها في متاجر الحيّ. وعملاً بنصيحة إحدى صديقاتها، أغرقت المواقع الإلكترونية بإعلانات ألحّت فيها على الطلب المستعجل. وما كاد يمرّ أسبوع حتّى كانا قد تلقّيا ستّ مكالمات.

* * *

رغم توجّسها من فراق طفليها، مضت تنتظر هذه المربيةَ كما لو أنّها تنتظر المسيح المخلّص. كانت تعرف عنهما كلّ شيء، وترغب في الحفاظ على سريّة هذه المعرفة. تعرف ذوقيهما وعاداتهما السيئة. إن كان أحدهما مريضاً، تشعر به على الفور. وهي مقتنعة بأن لا أحد يستطيع أن يحميهما مثلما تفعل، لذلك لم تفارقهما من قبل قط.

منذ أن ولدتهما وهي تخاف عليهما من كلّ شيء، ولا سيما من الموت. لم تحدّث بذلك أحداً، لا أصدقاءها ولا بول، لكنّها كانت واثقة من أنّ هذه الأفكار تراودهم جميعاً. وهي متيقّنة من أنّهم ينظرون، مثلها، إلى أبنائهم أحياناً وهم نائمون، ويتساءلون عن شعورهم لو تحوّل هذا الجسد إلى جثة، ولو أسبلت هذه العيون إلى الأبد. كان ذلك يتجاوزها. تتزاحم هذه السيناريوهات الرهيبة بداخلها، فتطردها بهزّ رأسها وترديد بعض الصلوات، أو لمس الخشب أو يد فاطمة التي ورثتها عن أمّها، والتعوّذ من

الأذى والمرض والمصائب ومن نزوات الأشرار. وفي الليل حلمت باختفائهما المفاجئ وسط حشد غير مكترث من الناس وهي تصرخ: «أين هما طفلاي؟»، لكنّ الناس راحوا يضحكون منها ظانّين أنّ بها مسّاً.

قال بول بنفاد صبر: «لقد تأخّرت. إنها بداية سيّئة». توجّه إلى باب الشقة، ونظر من خلال ثقبه. الساعة تشير إلى الثانية والربع، والمترشّحة الأولى الفلبينية الأصل لم تصل بعد. وعند الثانية وعشرين دقيقة، طرقت جيجي الباب برفق، فقامت مريم لتفتح. وكان أوّل ما أثار انتباهها هو قصر رجليها، وانتعالها حذاء رياضياً من القماش وجوربين بيضاوين بكشكش رغم برودة الجوّ. ومع أنّ سنّها يناهز الخمسين، تملك قدمين أشبه بقدمي صبيّة. لم تكن تعدم الأناقة، وقد سوّت شعرها في ضفيرة تدلّت وسط ظهرها. نبّهها بول بجفاء إلى تأخّرها، فطأطأت رأسها ومضت تغمغم معتذرة. لم تكن تتحدّث الفرنسية بطلاقة، ما جعل بول يستجوبها على نحو فاتِر بالإنجليزية. لمّا تحدّثت عن تجربتها، وعن أبنائها الذين تركتهم في بلدها، وعن أصغرهم الذي لم ترَه منذ عشر سنوات، حسم بول أمره بألا يشغّلها. طرح عليها بضعة أسئلة شكليّة، وعند الثانية والنصف، رافقها إلى باب الشقة وقال: «سنتّصل بك لاحقاً، شكراً لك».

ثمّ تبعتها مهاجرة غير شرعيّة باسمة من ساحل العاج. إثرها

جاء دور كارولين، امرأة شقراء بدينة ذات شعر قذر، قضت مدّة المقابلة تشكو آلام ظهرها ومشاكل الدورة الدموية. تبعتها مليكة، مغربية مسنّة ركّزت في كلامها على خبرتها في العمل التي تناهز عشرين سنة، وحبّها للأطفال. لكنّ مريم كانت واضحة. فهي تعترض على تشغيل مغربية للعناية بطفليها. قال بول محاولاً إقناعها: «قد يكون هذا أمراً جيّداً. ستكلّمهم بالعربية بما أنّك ترفضين أنت فعل ذلك». عدا أن مريم رفضت رفضاً باتّاً. خشيت من أن تنشأ بينهما ألفة ومودّة خفيّة، ومن أن تشرع في التعبير عن ملاحظاتها بالعربية. خافت من أن تحكي لها حياتها، ثمّ تتجرّأ بعد ذلك على طلب أشياء كثيرة باسم اللغة والديانة المشتركتين. فلطالما تجنّبت ما تسمّيه تضامن المهاجرين.

* * *

ثمّ جاءت لويز. لمّا تحكي مريم عن هذه المقابلة، تقول إنّها تعلّقت بها منذ أول وهلة. كان الأمر أشبه بما يقع للعشاق في قصص الغرام الذين يتعلقون بمعشوقيهم من أوّل نظرة. وتلحّ بالخصوص على الكيفية التي تصرّفت بها ابنتها. ثمّ تضيف بانتشاء: «هي من اختارتها». كانت ميلا قد صحت توّاً من القيلولة، أيقظتها صرخات أخيها الحادّة. ذهب بول لإحضار الرضيع فتبعته وهي تحاول الاختباء بين ساقيه. تحكي مريم هذا المشهد وهي لا تزال مفتونة بالثقة في النفس التي تصرّفت بها المربّية. قامت وأخذت الرضيع بلطف من بين ذراعي أبيه متظاهرة بعدم رؤية ميلا، ثمّ قالت: «أين هي الأميرة؟ يخيّل لي أنّني رأيت

أميرة، أين اختفت؟». تعالت ضحكات ميلا، فاسترسلت لويز في اللعبة باحثة عنها في كلّ الأرجاء، تحت المائدة وخلف الكنبة. لقد اختفت الأميرة العجيبة. طرحا عليها بضعة أسئلة. قالت لويز إنّ زوجها متوفٍّ وابنتها ستيفاني كبرت الآن -«عشرون سنة تقريباً، أمر لا يصدّق»- وأنّها متحرّرة، ليس لديها ما يشغلها. ومدّت لبول ورقة كتبت عليها أسماء من شغّلوها من قبل. تحدّثت عن أسرة روفيي التي سُجِّل اسمها في رأس القائمة: «مكثتُ عندهم لفترة طويلة. هما أيضاً كان لهما طفلان. ولدان». استحوذت لويز على قلبَي بول ومريم بقسماتها الناعمة، وبسمتها الصادقة، وشفتيها اللتين لا ترتعشان، ورباطة جأشها. نظراتها نظرات امرأة يمكن أن تسمع كلّ شيء وتصفح عن كلّ شيء، ووجهها أشبه ببحرٍ هادئ لا يستطيع المرء تخمين مدى عمقه.

وفي مساء اليوم نفسه، اتّصلا بالبيت الذي تركت لهما لويز رقم هاتف أصحابه. أجابتهما امرأة بفتور، لكنّها ما إن سمعت اسم لويز حتّى غيّرت نبرتها: «لويز؟ يا لكما من محظوظين! كانت بمثابة أمّ ثانية لولديّ. تحسّرنا كثيراً لمّا اضطررنا لفراقها. لا أخفيك أنّني فكرت حينئذٍ في إنجاب طفل ثالث حتّى نحتفظ بها».

فتحت لويز مصاريع نوافذ شقّتها. كانت الساعة قد جاوزت الخامسة صباحاً بقليل، ومصابيح الإنارة العمومية ما زالت موقدة. كان ثمّة رجل يسير بمحاذاة الجدار في الشارع تجنّباً للمطر الذي هطل بغزارة طوال الليل. صفّرت الريح في الأنابيب وسكنت أحلامها. كانت قطرات المطر تصدِم بقوّة واجهة البناية والنوافذ كما لو أنّها تسقط على نحوٍ أفقي. ولويز تحبّ أن تنظر إلى الخارج، وتحديداً قبالة شقتها حيث يوجد منزل صغير رابض بين عمارتين كئيبتين، ذو حديقة مُدغِلة، استقرّ فيه زوج وزوجته في بداية الصيف، وهما شابان باريسيان، يلعب أطفالهما في الأرجوحة، ويواظبون على تنظيف المكان المزروع بالخضر كلّ أحد. وتساءلت لويز عمّا دعاهم إلى الاستقرار بهذا الحي.

شعرت بقشعريرة بسبب قلّة النوم، وكشطت بطرف ظفرها زاوية النافذة. رغم ما تبذله من جهد في تنظيفها مرّتين في الأسبوع، لا تزال تبدو مكدّرة، يكسوها الغبار وبعض البقع السوداء. في بعض الأحيان تمعن في تنظيف الزجاج حتى لتكاد تكسره. راحت تفركه بطرف إصبعها بقوة حتى تكسّر ظفرها، فرفعت إصبعها إلى فمها لإيقاف النزيف.

لم تكن الشقّة تتكوّن إلا من غرفة واحدة تستعملها لويز كغرفة نوم وصالون في الآن نفسه. وهي تحرص كلّ صباح على طيّ الأريكة-السرير، ولفّها في غلافها الأسود. وتتناول وجباتها على المائدة الواطئة أمام التلفزيون المشغّل على الدوام. وبمحاذاة الجدار، لا تزال مجموعة من صناديق الكرتون مغلقة. لعلّها تحوي بعض الأشياء التي يمكن أن تبثّ الحياة في هذه الشقة الضيّقة المنزوعة الروح. وإلى يمين المقعد توجد داخل إطار متلألئ صورة مراهقة ذات شعر أحمر.

نشرت تنّورتها وصدريتها برفق على الأريكة، والتقطت حذاءها الخفيف الذي اشترته منذ ما يزيد عن عشر سنوات، والذي ما زال يبدو كأنّه جديد من شدّة عنايتها به. إنّه حذاء لامع بسيط، ذو كعب مربّع، تعلو كلّ فردة منه عقدة صغيرة تكاد لا تُلحَظ. جلست ومضت تنظف عقدة إحدى الفردتين بغطس قطعة قطن في قارورة كريم مزيل للماكياج. كانت حركاتها بطيئة ودقيقة، تنظّف بإمعان واستغراق. ولمّا لاحظت أن القطن اتّسخ، قرّبت الحذاء من المصباح الموضوع على المنضدة، ولم تضع الفردة إلا بعد أن تأكّدت من أنّها استعادت بريقها، ثمّ تناولت الفردة الثانية.

كانت الساعة لا تزال باكرة بحيث وجدت الوقت الكافي لتعيد طلاء أظافرها التي أتلفتها أشغال البيت. لفّت إبهامها في ضمادة، وطلت أصابعها الأخرى بطبقة من الملمِّع الوردي الخفي. وشدّت شعرها الذي صبغته لأوّل مرّة لدى الحلاق رغم غلاء الثمن، وسوّته بعقيصة خلف رقبتها. ثمّ تزيّنت، فبدت بما وضعت من مسحوق أزرق على جفنيها هرمة، هي من يُخيّل لمن

يبصرها عن بعد أنّها لم تجاوز العشرين بسبب نحولها وهيئتها الضئيلة، مع أنها جاوزت الأربعين.

* * *

راحت تدور في تلك الغرفة التي لم تبدُ لها قط بمثل هذا الصغر والضيق. جلست ثمّ قامت على الفور. بإمكانها أن تشغّل التلفاز وتشرب كأس شاي وتقرأ نسخة قديمة من مجلّة نسائية تحتفظ بها تحت سريرها، لكنّها خافت من أن تسترخي وتغفو، فيفوتها الموعد. جعلها هذا الصحو المبكّر تشعر بالضعف والوهن. إن هي أغمضت عينيها ربّما غلبها النعاس بسرعة، فتصل متأخّرة. كان عليها أن تحافظ على تيقّظها وتركّز كلّ انتباهها على هذا اليوم الأوّل من عملها الجديد.

لم تستطع الانتظار في بيتها. ورغم أنها بكّرت كثيراً، والساعة لم تكن جاوزت السادسة صباحاً، حثّت الخطى إلى محطة قطار الشبكة الجهوية السريعة (RER). واستغرقت ربع ساعة تقريباً لتصل إلى محطّة سان مور دي فوسي. جلست في عربة القطار قبالة شيخ صيني نائم، متكوّم على نفسه وقد أسند جبهته إلى زجاج النافذة. تفرّست وجهه المنهك، وفي كلّ محطة كانت تهمّ بإيقاظه. خشيت أن يضلّ طريقه، أن يحمله القطار بعيداً عن وجهته، أن يفتح عينيه في آخر محطّة، ويضطرّ إلى أن يقفل راجعاً، لكنّها لم تفعل. من الحكمة ألا تكلّم الغرباء. فقد كادت فتاة سمراء مرّة أن تصفعها، صرخت بها: «لماذا تحدّقين فيّ هكذا؟ لماذا ترشقينني بهذه النظرات؟».

ولمّا بلغ القطار محطة أوبير، قفزت لويز على الرصيف. كان الازدحام قد بدأ، وبينما كانت تصعد السلم نحو رصيف الميترو، دفعتها امرأة بقوّة. وزكمت أنفها رائحة هلاليات محروقة. ركبت ميترو الخط 7 في الأوبرا، ونزلت في محطة بواسونيير.

وصلت قبل الموعد بساعة تقريباً، فجلست إلى مائدة بمقهى بارادي، وهو مقهى بلا رونق، تستطيع منه أن تراقب مدخل العمارة. مضت تلعب بملعقتها وهي تنظر بحسد إلى الرجل الجالس إلى يمينها وهو يمصّ سيجارته بشفتيه الثخينتين وفمه البشع. ودّت لو تنزعها من بين أصابعه وتسحب منها نفساً عميقاً. ولمّا لم تعد تحتمل، دفعت ما عليها ودخلت إلى العمارة الهادئة. ستدقّ الجرس بعد ربع ساعة، وفي انتظار ذلك، جلست على درجة في السلّم بين طابقين إلى أن سمعت ضجّة، وما كادت تقف حتّى رأت بول نازلاً متأبّطاً دراجته وعلى رأسه خوذة ورديّة.

«أأنت هنا منذ مدة طويلة يا لويز؟ لماذا لم تدخلي إلى البيت؟

- لم أشأ إزعاجكم.

- كلا، أنت لا تزعجيننا، بالعكس».

ثمّ قال وهو يسحب من جيبه حزمة مفاتيح:

«خذي، هذه مفاتيحك واعتبري البيت بيتك».

لمّا تحكي مريم عن دخول لويز إلى حياتهما اليومية، تقول: «مربّيتي ساحرة. لا بدَّ أنّها تملك قدرات خارقة. فقد استطاعت أن تغيّر هذه الشقّة الخانقة الضيقة إلى مكان هادئ ومشرق. زحزحت الجدران، وجعلت الخزانات أعمق، والأدراج أوسع، وجلبت النور».

أعطتها مريم بعض التعليمات في اليوم الأوّل. دلّتها على كيفية تشغيل الأجهزة. وكانت تردّد وهي تشير إلى أشياء وملابس: «انتبهي لهذا، فهو عزيز عليّ». وأوصتها بالعناية بمجموعة أقراص الفينيل الخاصة ببول، ولا تترك الطفلين يعبثان بها، فهزّت لويز رأسها بصمت موافقة. كانت تنظر إلى محتويات الشقة بوثوق جنرال يتطلّع إلى أرض عليه غزوها.

وما كاد يمرّ أسبوع حتّى جعلت لويز من هذه الشقّة التي كانت تعمّها الفوضى بيتاً بورجوازياً حقيقياً. فرضت أساليبها العتيقة، ونزوعها إلى الكمال، حتّى إن مريم وبول لم يصدّقا عيونهما. خاطت أزرار السترات التي تخلّيا عنها منذ شهور بسبب خمولهما وتقاعسهما في البحث عن إبرة، وأعادتْ خياطة حواشي

التنانير والسراويل، ورتقت ملابس ميلا التي كانت مريم تنوي التخلّص منها. وغسلت الستائر التي بَهِتَ لونها بسبب دخان السجائر والغبار، وصارت تغيِّر الملاءات مرّة في الأسبوع، وهو ما سُرّ له الزوجان. وقال لها بول مبتسماً مرّة إنّها تشبه ميري بوبينز، لكنّه لم يكن واثقاً من أنها فهمت الإطراء. وخلال الليل، يرفل الزوجان في أغطيتهما النظيفة وهما لا يكادان يصدّقان هذه النعمة التي يتقلبان فيها، ويتملّكهما شعور بأنّهما عثرا، لحسن طالعهما، على الجوهرة النفيسة. كان راتب لويز يثقل مالية الأسرة بالطبع، لكنّ بول لم يتبرّم من ذلك. فلويز صارت لا غنى عنها.

* * *

ولمّا تعود مريم إلى البيت مساءً، تجدُ العشاء جاهزاً، والطفلين هادئين وممشّطين. وبذلك كانت لويز ترعى أحلام مريم بأسرة مثالية، أحلام كانت تخجل من أن تعلّل بها نفسها. علّمت ميلا كيف ترتّب أغراضها وتعلّق معطفها على المشجب أمام ذهول والديها.

واختفت من الشقة الأشياء التي لا لزوم لها. فمعها لم تعد الأشياء تتراكم: لا أواني المطبخ المتسخة ولا الملابس ولا الأظرفة البريدية التي تُهمل ولا تُفتح، فتتكدّس تحت مجلّة قديمة. ومعها أيضاً لم يعد شيء يفسد أو يتعفّن. فهي تتفحّص كلّ شيء ولا تسهو عن أمر. تسجّل كلّ صغيرة وكبيرة في مذكّرة صغيرة ذات غلاف منمّق: مواعيد حصص الرقص، أوقات الخروج من المدرسة، مواعيد طبيب الأطفال. وتدوّن أسماء الأدوية التي

يتناولها الصغيران، وثمن المثلّجات التي اشترتها في ملعب الأطفال، والجملة التي قالتها المعلّمة لميلا بحذافيرها.

ولم تكد تمضي بضعة أسابيع حتّى صارت لا تتردّد في نقل بعض الأشياء من أماكنها. أفرغت الخزانات تماماً، وعلّقت أكياس صغيرة من الخزامى بين المعاطف، ونسّقت باقات الزهور. وحين تنهي عملها بعد أن ينام آدم، وتذهب ميلا إلى المدرسة، تشعر برضا عميق، وتجلس لتتأمّل ما قامت به من عمل. عندئذٍ تبدو الشقة الصامتة مستكينة مثل عدوّ يستجدي الصفح.

على أنّ أعاجيبها ظهرت أجلى ما تكون في المطبخ، حتّى إنّ مريم قالت عن نفسها معترفة إنّها لا تتقن شيئاً، وتعدم الذوق. فالمربّية تحضّر أطباقاً يثني عليها بول، ويلتهمها الطفلان من دون أن ينبسا، ويأكلان ما في صحنيهما من دون حاجة إلى الإلحاح. وعادت مريم وبول إلى استدعاء الأصدقاء الذين صاروا يستمتعون بأطباق لحم العجل بالصلصة، واليخاني، وقطع اللحم المُنكّهة بالأعشاب، والخضار الطازجة التي تطبخها لويز على نارٍ هادئة. فيهنّئون مريم، ويغمرونها بثنائهم، لكنّها كانت تعترف دائماً: «المربية هي من أعدّت كلّ هذا».

لمّا تكون ميلا في المدرسة، تشدّ لويز إليها آدم بحمّالة من القماش. فهي تستطيب الشعور بفخذي الصبي الممتلئين على بطنها، ولعابه الذي يسيل على عنقها حين ينام. كانت تقضي اليوم بكامله تغنّي لهذا الرضيع الخامل. تدلّكه، وتتباهى ببدانته ووجنتيه المتورّدتين البارزتين، وهو يستقبلها في الصباح مثغثغاً، باسطاً نحوها ذراعين ممتلئتين. وما كادت تمضي بضعة أسابيع على مجيئها حتّى تعلّم آدم المشي. هو من كان يقضي الليل بكامله في الصراخ، صار ينام نوماً هادئاً حتّى الصباح.

أمّا ميلا، فلم تكن في مثل وداعته. لمّا ترتدي لباس الباليه تبدو هزيلة. تشدّ لويز شعرها بعقائص شدّاً، حتى لتبدو عيناها مسحوبتين إلى أعلى باتجاه الصدغين. عندئذٍ تصير أشبه ببطلات القرون الوسطى، بجباههن الواسعة ونظراتهن النبيلة الفاترة. وميلا طفلة صعبة ومرهِقة. تعبّر عن تبرّمها بالعويل. ترتمي أرضاً وسط الشارع، وتروح تضرب بيديها ورجليها، وتتمرّغ لكي تُرضِخ لويز لمشيئتها صاغرة. ولمّا تقرفص المربّية وتحاول التحدّث إليها، تشيح عنها بنظرها، وتروح تحسب بصوت عالٍ عدد الفراشات

المصوّرة على ورق الجدران. يعجبها لمّا تبكي أن تنظر إلى نفسها في المرآة لأنّها مهووسة بصورتها. وحين تكون في الشارع، لا تحوّل بصرها عن زجاج واجهات المحلات التجارية حتّى إنّها كثيراً ما تصدم الأعمدة، أو تعثر قدمها بعقبات صغيرة على الرصيف من شدة افتتانها بصورتها.

وميلا طفلة ماكرة. تعرف أنّها تثير أنظار الناس في الشارع فتشعر لويز بالخجل، وتسارع إلى التنازل. وكثيراً ما تضطر المربيّة إلى أن تسلك طريقاً ملتوية لتتجنّب متجر اللعب الموجود في الشارع الكبير، لأنّ ميلا تجهش بالبكاء أمامه، وترفع عقيرتها. وفي الطريق إلى المدرسة، تتلكّأ وتسرق توتة من معروضات بائع الفواكه، تصعد على حافات واجهات المتاجر، وتختبئ في مداخل العمارات أو تلوذ بالفرار جارية، فتحاول لويز اللحاق بها وهي تدفع عربة أخيها، وتناديها بأعلى ما أوتيت من صوت، لكنّ الصبية لا تتوقّف إلا عند طرف الرصيف. وفي بعض الأحيان تُظهِر الأسف، وتُشفق من شحوب لويز، ومن الرعب الذي تثيره فيها، فتعود إليها على نحو ودود، وتتشبّث بساقها طالبة الصفح، مستدرّة حنانها وهي تبكي.

على أنّ لويز ستروّض الطفلة شيئاً فشيئاً، أخذت تحكي لها يوماً بعد يوم قصصاً تتكرّر فيها دائماً الشخصيات نفسها: أيتام وفتيات مفقودات وأميرات سجينات وقصور أفرغتها الغيلان من أهلها، وحيوانات غريبة عبارة عن طيور بأنوف مشوّهة، ودِبَبة بساق واحدة ومخلوقات كئيبة ذات قرن واحد على جبينها. تصمُتُ الطفلة، وتمكث بجوارها مشدوهة، تنتظر بنفاد صبر،

وتطالب بعودة الشخصيات. من أين كانت تأتي بهذه الحكايات؟ كانت تفيض من خاطرها سيلاً متدفقاً من دون تفكير ولا تأمّل، ومن دون أن تكلّف مخيّلتها أدنى مجهود. لكن في أيّ بركة داكنة، وفي أيّ غابة مُدغلة كانت تصيد هذه الحكايات الرهيبة التي يموت فيها الطيبون في النهاية من دون أن ينقذوا العالم؟

تشعر مريم دائماً بالإحباط عندما يشرع زملاؤها المحامون في الوصول على الساعة التاسعة والنصف، فتسمعهم يفتحون باب المكتب حيث تشتغل، ويسكبون القهوة. ثم يتعالى زعيق هواتفهم، ويشتدّ وقع خطواتهم على الأرضية الخشبية، وتتعاظم جلبتهم.

هي دائماً أوّل من يصل. تدخل إلى المكتب قبل الثامنة، ولا توقد إلا مصباحاً صغيراً موجوداً فوق المكتب، وتستغلّ تحت ضوئه الخافت الصمت المطبق، وتركّز ذهنها مثلما كانت تفعل أيام الدراسة. تنسى كلّ ما حولها، وتستغرق باستمتاع في تفحّص ملفّاتها. وفي بعض الأحيان تعبُر الممرّ المظلم بورقة في يدها وهي تحدّث نفسها بصوت مسموع. تدخّن سيجارة في الشرفة وتشرب كوب قهوة.

يوم استأنفت مريم العمل، استيقظت عند الفجر وقد غمرتها حيويّة طفوليّة. ارتدت تنّورة جديدة، وانتعلت حذاء بكعب عالٍ، فبادرتها لويز متعجِّبة: «يا لك من حسناء!». وعند عتبة الباب، وقفت المربية حاملة آدم بين ذراعيها، ودفعت سيّدتها إلى الخارج

وهي تقول: «لا تقلقي علينا. كلّ شيء هنا سيكون على ما يرام».

استقبل باسكال مريم بحفاوة، وسلّمها مكتباً به باب يفضي إلى مكتبه، يتركه في الغالب موارباً. وما كادت تمضي بضعة أسابيع على التحاقها حتّى عهد لها بمسؤوليات لم يظفر بها زملاء يكبرونها سنّاً. وبمرور الشهور، صارت تعالج بمفردها قضايا عشرات الزبائن. كان باسكال يشجّعها على أن تتمرّس بالقضايا، وتنفق ما عُرِفَت به من طاقة هائلة في العمل. وهي لم تكن ترفض أبداً. لا تُعرِض عن أيّ ملفٍّ يُسلَّم لها، ولا تتبرّم أبداً من العمل حتّى وقت متأخّر من الليل. وكثيراً ما كان يقول لها باسكال: «أنت ممتازة». وقضت شهوراً غارقةً في قضايا تافهة. دافعت عن تجّار مخدرات ومعتوهين ولصوص أغبياء ومدمني كحول ضبطوا وهم يسوقون. كما رافعت في قضايا المديونية المفرطة وتزوير البطاقات البنكية وانتحال هويّة.

وعوّل عليها باسكال لجلب مزيد من الزبائن، ومن ثمّة كان يشجّعها على تخصيص جزء من وقتها للمساعدة القضائية. وكانت تتردّد على محكمة بوبيني مرّتين في الشهر، وتنتظر في الردهة إلى التاسعة ليلاً، وعيناها لا تفارقان ساعتها، تراقبان الوقت الذي لا يتحرّك. وكانت تنفعل أحياناً، فتردّ بعنف على زبون مرتبك. لكنّها لم تكن تدّخر جهداً في الدفاع عنه، وتحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه. ولم يكن باسكال يتوقّف عن ترديد: «عليك أن تحفظي ملفّك عن ظهر قلب»، وهذا ما كانت تفعله. تعيدُ قراءة المحاضر حتّى ساعة متأخرة من الليل، تبحث عن أبسط

غموض، وتتصيّد أدنى خطأ في تطبيق المساطر. كانت تشتغل بهوس، وتجني ثمار عملها المضني. وسرعان ما بدأ زبائنها القدامى ينصحون بها أصدقاءهم، وبدأ اسمها يشتهر بين المعتقلين. ووعدها شاب أنقذته من عقوبة سجن نافذة بأن يكافئها. «لن أنسى أبداً أنّك أخرجتني من هذا المكان».

ونودي عليها مرّة في جوف الليل لكي تقدّم مساعدة قانونية لمعتقل على ذمّة التحقيق، وهو زبون سابق اعتُقل بتهمة العنف الزوجي. أقسم لها بأنّه لم يرفع يده على امرأة قطّ. كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلاً، ارتدت ملابسها في الظلام، ومن دون ضجّة أحنت على بول لكي تقبّله، فغمغم متذمّراً، وانقلب على جنبه وغطّ في النوم.

كثيراً ما كان زوجها ينبّهها إلى أنّها تبالغ في العمل، وهو ما كان يثير حفيظتها. ورغم أنّه كان يستاء من ردّ فعلها، كان يجهد نفسه ليُبدِي عكس ذلك. يتظاهر بأنّه يخاف على صحّتها، ويخشى عليها من استغلال باسكال. أمّا هي فكانت تحاول ألا تفكّر كثيراً في طفليها، وألا تترك الشعور بالذنب ينهشها. يخيّل لها أحياناً بأنّ كل من يحيطون بها متحالفون ضدّها. فحماتها تحاول أن تقنعها بأنّ «سبب مرض ميلا هو شعورها بالوحدة». أمّا زملاؤها فلا يدعونها لتشرب معهم كأساً بعد الشغل أبداً، ويعجبون من قضائها الليالي في المكتب: «أليس لك أطفال؟»، بل حتى المعلّمة التي استدعتها ذات صباح لتكلّمها عن حادث سخيف وقع بين ميلا وإحدى زميلاتها في الصفّ، انضمت إلى هذا الحلف. لمّا اعتذرت لها مريم عن تغيّبها عن الاجتماعات الأخيرة، وأنّها

بعثت لويز عوضها، لوّحت المرأة الشيباء بيدها وقالت: «لا عليك! هذه آفة العصر. كلّ هؤلاء الأطفال المساكين مهمَلون بينما يجري الآباء خلف طموحاتهم. الأمر في منتهى البساطة، هم منشغلون طول الوقت. أتعرفين الجملة التي لا يكفون عن ترديدها؟ «هيّا، أسرع»! وبطبيعة الحال، نحن من نتكبّد تبعات كلّ ذلك. نحن من نؤدّي ثمن قلق الأطفال وشعورهم بالإهمال».

ودّت مريم بحنق لو تردّ عليها، لكنّها ألفت نفسها عاجزة. أبِسَبَبِ الكرسيّ الصغير غير المريح الذي كانت تجلس عليه في تلك القاعة التي تفوح برائحة الطلاء وعجينة الأطفال؟ أعادها شكلُ الفضاء وأثاثُه وصوتُ المعلّمة إلى الطفولة، إلى عمر الطاعة والإكراه. ابتسمت مريم، وشكرتها ببلاهة واعدة بأن يتحسن سلوك ابنتها. تمالكت نفسها من أن تصرخ في وجه هذه الشمطاء السليطة بأن تكفّ عنها دروسها الأخلاقية وعداءها للنساء. لكنّها خافت من أن تنتقم من ميلا.

أمّا باسكال، فبدا متفهّماً للغضب الذي يسكنها، ومُقدّراً لِتعطّشها الشديد إلى الاعتراف وإلى مواجهة تحدّيات في مستوى قدراتها. وهكذا نشبت بينهما معركة خفيّة، يجدُ فيها كلٌّ منهما متعة غامضة. هو يتحدّاها، وهي تقاوم بعناد. ينهكها بالعمل، فلا تخيّب ظنّه. وذات مساء دعاها لشرب كأس بعد العمل: «مضت ستة أشهر على التحاقك بنا، ألا نحتفل بهذه المناسبة؟»، مشيا بصمت في الشارع، وفتح لها باب الحانة، فابتسمت. وجلسا في أقصى الصالة على كراسي منجّدة. طلب باسكال زجاجة نبيذ أبيض، وتحدّثا عن ملف قيد المعالجة، وسرعان ما وجدا

نفسيهما يخوضان في ذكريات سنوات الدراسة. تذكّرا الحفل الفاخر الذي نظّمته شارلوت في فندقها بالدائرة الثامنة، ونوبة الذعر المضحكة التي اعترت سيلين المسكينة يوم الامتحانات الشفويّة. وراحت مريم تشرب بسرعة بينما يُضحكها باسكال ويُسلّيها. لم تشعر بالرغبة في العودة إلى البيت. وودّت لو لم يكن لها أحد تخبره بتأخّرها، ولم يكن لها أحد ينتظرها. لكن ثمّة بول، وثمّة الطفلان.

وشعرت بدفق من الإثارة الجنسية يخز حلقها وثدييها، فمرّرت لسانها على شفتيها. هي ترغب في شيء ما. لأوّل مرّة منذ مدّة طويلة تتملّكها نزوة طائشة، تافهة وأنانيّة. رغبة نابعة من ذاتها. فرغم حبّها لبول، فهي تجد جسده مثقلاً بالذكريات. لمّا يولج فيها، فهو يولج في بطن الأمّ منها، ذلك البطن المثقل الذي طالما استقرّ فيه منيّه. بطن مغضّن ومتموّج شيّدا فوقه بيتهما الذي عاشا فيه كثيراً من الأفراح والأتراح. لقد دلّك بول ساقيها المنتفختين الأرجوانيتين، ورأى الدّم يلطّخ الفراش. أمسك برأسها وشعرها بينما كانت مقرفصة تتقيّأ، وسمع صراخها، ومسح العرق عن وجهها المتورّد بينما كانت تدفع. ثمّ أخرج منها طفليه.

* * *

لطالما رفضت أن يمثّل الطفلان عائقاً أمام نجاحها وحريّتها، وأن يكونا مثل المرساة التي تسحب إلى القعر، وتجرّ وجه الغريق إلى الوحل. لمّا وعت هذا الوضع في البداية، أصيبت بنوبة حزن عميقة، وتملّكها إحساس بالظلم والإحباط. تنبّهت إلى أنّ هذا

الشعور بالنقص وإساءة التصرّف سيلازمانها طوال حياتها، مثلما سيلازمها الإحساس بأنّها ضحّت بجانب من حياتها لحساب جانب آخر. وجعلت من ذلك قصّة مأساوية، رافضة التخلّي عن الحلم بأمومة مثالية، مؤمنة بعناد بأنّ كل شيء ممكن، وأنّها ستحقّق أهدافها، ولن تشعر بمرارة ولا تعب، ولن تمثل دور ضحية ولا بطلة.

كانت مريم تتوصّل كلّ يوم تقريباً بإشعار من صديقتها إيما التي تنشر على مواقع التواصل الاجتماعي صوراً لابنيها الشقراوين. طفلان مثاليان يلعبان في متنزّه، سجّلتهما أمّهما في مدرسة ستُفتّق ما آنست فيهما من مواهب مبكّرة. سمّتهما باسمين عصيّين على النطق، استلهمتهما من ميثولوجيا شمال أوروبا، وتجدُ متعة كبيرة في تفسير دلالتهما. وتبدو إيما بدورها امرأة جميلة في هذه الصور، بينما لا يظهر الزوج أبداً. فهو قد نذر نفسه لالتقاط صور أُسرة مثالية لا ينتمي إليها إلا باعتباره مشاهِداً، وإن كان لا يدّخر جهداً ليظهر هو أيضاً في الإطار، هو من يرسل لحية، ويرتدي قمصان صوف طبيعي، ويلبس في العمل سراويل ضيّقة غير مريحة. ولم تجرؤ مريم أبداً على البوح لإيما بهذه الفكرة العابرة التي تخطر في بالها -فكرة غير مؤذية، وإن كانت مخزية- لمّا تنظر إلى لويز وطفليها، وتقول في نفسها: لا يمكن أن نكون سعداء إلا حين لا يعود بعضنا في حاجة إلى بعض، وحين يكون بإمكاننا أن نعيش حياتنا الخاصة، حياة تعنينا لوحدنا، ولا تعني غيرنا. لمّا نكون أحراراً.

تتوجّه مريم إلى الباب، وتنظر من خلال ثقبه، وتردّد كلّ خمس دقائق: «لقد تأخّروا»، وهو ما أصاب ميلا بالتوتر. أجهشت بالبكاء وهي جالسة على حافّة المقعد في فستان غير مريح. «ألن يأتوا؟».

فتجيب لويز: «سيأتون بالطبع، هوّني عليك، لم يحن وقت مجيئهم بعد!».

أخذت الاستعدادات لعيد ميلاد ميلا أبعاداً تتجاوز قدرات مريم. لم تعد لويز تتحدّث من أسبوعين إلا عن هذا الأمر. لمّا تعود مريم من العمل متعبة في المساء، تطلعها لويز على الأكاليل التي صنعت بنفسها. ثمّ تروح تصفُ لها بصوت هستيري الفستان الحريري الذي عثرت عليه في أحد المتاجر، وهي واثقة من أنّه سيجعل ميلا تطير من الفرح. وقد تمالكت مريم نفسها مراراً من أن تنهرها. فقد أرهقتها بهذه التفاهات. ميلا لا تزال صغيرة، وهي لا ترى جدوى من وضعها في مثل هذا الموقف. لكنّ لويز تحدّق فيها بعينيها الصغيرتين مستشهدة بميلا المتهلّلة من الفرح. كلّ همّها هو إمتاع هذه الأميرة، إقامة حفل عيد ميلاد رائع.

توشك مريم أن تسخر منها، لكنّها تلوم نفسها ثمّ تَعِدُ بأن تبذل قصارى جهدها لكي تساهم في الإعداد لعيد الميلاد.

اختارت لويز أن تنظّم الحفل بعد ظهر يوم الأربعاء حتى تضمن وجود جميع الأطفال في باريس، ومن ثمّة حضورهم الحفل جميعاً. أمّا مريم فالتحقت بعملها صباحاً، وأقسمت بأن تعود بعد الغداء.

لمّا رجعت بعد الظهر، كادت تهتف من شدّة ما تغيّرت عنها شقّتها. تغيّر الصالون تماماً، إذ تدلّى من سقفه الترتر والبالونات وشرائط الورق الملوّن، وأزيلت الأريكة من مكانها. وحتّى مائدة البلّوط الثقيلة التي لم تتزحزح من موقعها منذ حلولها بالشقّة، نُقِلت إلى الجانب الآخر من الغرفة لكي تفسح المكان للأطفال لكي يلعبوا.

«أساعدك بول في تحريك هذا الأثاث؟».

فأجابت لويز:

«كلا، نقلته بمفردي».

فغالبت مريم الضحك وهي لا تكاد تصدّق. وقالت في نفسها وهي تنظر إلى ذراعَي المربّية النحيلتَين، اللتين تبدوان أدقّ من عودي ثقاب: لعلّها تمزح. ثمّ تذكّرت كيف أبهرتها لويز سابقاً بقوّتها المذهلة. تعجّبت مرّة أو مرّتين من الكيفية التي رفعت بها حُزَماً ضخمة بالغة الثقل مع أنّها تحمل آدم بين ذراعيها. فخلف هذا الجسد النحيل الدقيق، تختفي قوّة خارقة.

قضت لويز فترة الصباح بكاملها تنفخ بالونات تتّخذ أشكال حيوانات، علّقتها في كلّ مكان من الشقة، في بهو المدخل

وأدراج المطبخ. . . وهيّأت بنفسها حلوى عيد الميلاد، عبارة عن شارلوت ضخمة، مزيّنة بفواكه حمراء. أمّا مريم فندمت على تغيّبها عن العمل، وودّت لو أنها لزمت مكتبها، ونعمت بهدوئه. فعيد ميلاد ابنتها أثار هواجسها. خافت من أن ترى الأطفال وقد نفد صبرهم وأرهقهم الملل. لم تشأ أن تضطرّ إلى مصالحة من يتشاجرون، ومواساة من يتأخّر عنهم آباؤهم. وخطرت في بالها ذكريات محبطة تعود إلى مرحلة طفولتها. تمثّلت صورتها وهي جالسة على سجّاد صوفي ثخين أبيض، بعيداً عن البنات اللواتي كنّ يلعبن لعبة المطبخ، وكيف تركت قطعة شوكولا تذوب بين خيوط الصوف، ثم حاولت إخفاء معالمها، فتلطّخ السجاد. اكتشفت أمّ مضيفتها أمرها، فوبّختها أمام جميع الأطفال.

لاذت مريم بغرفتها، وأغلقت على نفسها الباب، وتظاهرت بالاستغراق في قراءة رسائلها الإلكترونية. كانت واثقة من أنّها تستطيع الاعتماد كعادتها على لويز. وشرع الجرس يرنّ، وبدأ الصالون يمتلئ، وتعالى ضجيج الأطفال. أطلقت لويز الموسيقى، فخرجت مريم خلسة، وراحت تراقب الصغار متحلّقين على المربية، يدورون حولها وقد افتتنوا بها. كانت قد هيّأت لهم أغاني وخدعاً سحرية. وتنكّرت أمامهم، واندمجت فيهم وصارت واحدة منهم. وبدت بينهم نابضة بالحياة، مبتهجة ومثيرة. أتحفتهم بأغانيها، وحاكت لهم أصوات الحيوانات، بل إنّها حملت ميلا وأحد أصدقائها على ظهرها أمام الأطفال الآخرين الذين دمعت عيونهم من الضحك، ودَعَتهُم إلى المشاركة في مسابقة رعاة البقر.

أُعجبت مريم بقدرة لويز على الاستغراق في اللعب. فهي مسكونة بهذه الطاقة الخارقة على اللعب التي لا تُصادَف إلا عند الأطفال. وبينما عادت ذات يوم إلى بيتها مساءً، فوجئت بلويز مستلقية على الأرض وقد طلت وجهها بأصباغ، ورسمت على خدّيها وجبينها خطوطاً عريضة سوداء أشبه بتلك التي تُرى على وجوه المقاتلين، وزيّنت رأسها بالورق كما يفعل الهنود الحمر، ونصبت وسط الصالون خيمة هندية بواسطة غطاء رفعته على مكنسة وكرسي. وقفت مريم في فتحة الباب مذهولة وراحت تراقبها وهي تتلوّى وتصدر أصواتاً غريبة، فانزعجت من ذلك. بدت لها المربّية كما لو كانت مخمورة. هذا هو ما تبادر لذهنها لأوّل وهلة. فما إن أبصرتها لويز حتّى انتصبت واقفة ومضت تمشي مترنّحة وقد تورّدت وجنتاها، وقالت معتذرة: «لقد تنمّلت رجلاي». وتشبّث آدم بساقها، فراحت تضحك ضحكاً صادراً من العالم الخيالي الذي كانا يلعبان فيه.

وطمأنت مريم نفسها قائلة: لعلّ لويز لا تزال هي أيضاً طفلة. تأخذ الألعاب التي تلعبها مع ميلا على محمل الجدّ.

يتسلّيان مثلاً بلعبة الشرطي واللص، فتقبل لويز أن تُسجن خلف قضبان وهميّة. وفي بعض الأحيان، هي من تمثّل الشرطة، وتلاحق ميلا. وفي كلّ مرّة توزّع فضاء اللعب توزيعاً خاصاً على ميلا أن تتذكّره. تخيط ملابس متنوّعة، وتنشئ سيناريوهات حافلة بالمفاجآت، وتهيّئ الديكورات بعناية فائقة. وقد يحدث أن تتعب الصبية، فتقول لها متوسّلة: «أرجوك، لِنُعِد اللعبة من جديد!».

ما لا تعرفه مريم هو أنّ لويز تفضّل لعبة الغمّيضة، لكن شريطة التخلص من كلّ قواعدها، والاحتفاظ بعنصر المفاجأة فقط. تختفي من دون سابق إعلام، وتتكوّم في أحد أركان البيت، فيروح الطفلان يبحثان عنها. وهي تختار في الغالب أمكنة تسمح لها بمراقبتهما من دون أن يرياها. تتسلّل تحت السرير أو خلف الباب وتحبس أنفاسها وتتسمّر في مكانها.

تفهم ميلا إذاً أن اللعبة بدأت، فتروح تصرخ بجنون، وتصفّق بيديها وآدم يتبعها. ومن شدّة ما تضحك تفقد توازنها أحياناً وتسقط على مؤخرتها. تنادي لويز، لكنّها لا تجيب. «أينك يا لويز؟ حذار يا لويز، ها قد وصلنا، سنعثر عليك».

وتلزم لويز الصمت، ولا تبرح مخبأها رغم صراخهما وبكائهما وشعورهما بالإحباط. تترصّد آدم المذعور اليائس وهو يشهق من البكاء. لا يفهم ما جرى، ينادي باسم «لويز» مبتوراً، والمخاط يسيل على شفتيه وقد احمرّت وجنتاه من الحنق. ولا يلبث الخوف أن يداهم ميلا أيضاً، فتقتنع للحظة بأنّ لويز انصرفت حقّاً، وتركتهما وحيدين في الشقة ولن تعود رغم حلول

الظلام. ويستبدّ التوتّر بالصغيرة، فتروح تتوسل للمربية وهي تقول: «هذه اللعبة لم تعد مسلّية، أين أنت يا لويز؟» ثمّ تثور وتشرع تضرب بقدميها على الأرض. لكن لويز تتريّث، وتراقبهما كما يراقب صياد سمكة صادها وتركها تتخبّط والدم يسيل من خياشيمها. سمكة تتلوّى على أرضية المركب، وتتجرّع الهواء بفمها المنهك، سمكة لا أمل لها في النجاة.

ثمّ بدأت ميلا تكتشف المخابئ. فهمت أنّ عليها أن تسحب الأبواب، وترفع الستائر وتجثو على الأرض لتنظر تحت السرير. لكن لويز كانت تنجح دائماً في العثور على أوكار جديدة تختبئ فيها. تندسّ في سلّة الملابس الوسخة، أو تحت مكتب بول أو تدخل إلى خزانة وتتلحّف بغطاء. وقد حدث أن اختفت في الظلام الدامس بقمرة الاستحمام. بحثت عنها ميلا في كلّ مكان من دون جدوى. ورغم نحيبها وإحباطها لم تخرج لويز من مخبئها.

وفي يوم من الأيام لم تبكِ ميلا كعادتها. ذلك أن لويز علقت في الفخّ الذي نصبت. صمتت ميلا، ودارت حول المخبأ متظاهرة بعدم اكتشافه، وجلست على سلّة الملابس الوسخة إلى أن أوشكت لويز على الاختناق، وراحت الطفلة تهمس: «هل نتصالح؟».

لكن المربية رفضت الاستسلام. لاذت بالصمت وركبتاها ملتصقتان بذقنها. وشرعت الطفلة الصغيرة تضرب بقدميها سلّة الغسيل القصبيّة بلطف وهي تقول ضاحكة: «أعرف أنّك هنا يا

لويز!»، نهضت لويز على حين غرّة، فسقطت ميلا على الأرض، وارتطم رأسها ببلاط الحمام، فأصابها الدوار وتعالى عويلها. لكن خروج لويز من مخبئها ظافرة، وتطلّعها إلى الصبيّة من علياء انتصارها، حوّل ذعر الطفلة إلى فرحة هستيرية. وسرعان ما انطلق آدم جارياً ليلحق بهما وقد انقطعت أنفاسهما من شدّة الضحك.

ستيفاني

تعلّمت ستيفاني تغيير الحفاظات وتحضير زجاجات الإرضاع وهي لا تزال في الثامنة من عمرها. لمّا كانت تحمل الرضّع من أسِرّتهم، تمرّر يدها بحركات واثقة تحت أقفائهم. كانت تضعهم على ظهورهم ولا تهزّهم بعنف. وحين تحمِّمهم، تمسك يدُها بأكتافهم الصغيرة بثبات. لقد هدهدت صرخاتُ الرضّع وضحكاتُهم ونحيبُهم ذكرياتِ الطفلة الوحيدة التي كانتها. ولطالما ابتهج من يحيطون بها بحبّها للأطفال، وأشادوا بمواهبها الأموميّة الفذّة، وما تتمتّع به من تفانٍ قلّ نظيره لدى طفلة صغيرة في سنّها.

لمّا كانت ستيفاني طفلة، كانت أمّها ترعى الرضّع في بيتهم، أو بالأحرى في بيت جاك، كما كان يحبّ أن يقول. كانت الأمّهات تعهدن إليها بصغارهنّ في الصباح. وهي لا تزال تذكر أولئك الأمّهات المستعجلات الحزينات اللواتي كنّ يلصقن آذانهنّ بالباب. علّمتها لويز كيف تصيخ السمع لخطواتهن المتوتّرة في ممرّ العمارة. بعضهنّ كنّ يستأنفن العمل بعد مرور فترة قصيرة على نِفاسهن، وكنّ يتركن رضّعاً في غاية الصغر بين أحضان لويز. كما كنّ يسلّمنها أيضاً حقائب غامقة تحتوي على ما حلَبْنَه

من أثدائهنّ خلال الليل، تضعه لويز في الثلاجة. ولا تزال ستيفاني تذكر أيضاً تلك القناني الصغيرة المصفوفة على الرفّ، التي كُتبت عليها أسماءُ الأطفال. استيقظت ذات ليلة، وفتحت زجاجة سُجِّل عليها اسم جول، وهو رضيع أحمر البشرة كان قد خمش وجهها بأظافره الحادّة، وعمدت إلى شرب ما بها من حليب بجرعة واحدة. لن تنسى أبداً طعمه الشبيه بطعم البطيخ الفاسد. طعم لاذع لازم فمها لأيّام.

وكثيراً ما كانت ترافق أمّها مساء أيّام السبت لرعاية الأطفال في شقق كانت تبدو لها بالغة الشساعة. تعبُر نساء جميلات البهو، وتطبعن قبلات على خدود أبنائهن فتتركن عليها أثر أحمر الشفاه. أمّا الرجال، الذين يضايقهم وجود لويز وستيفاني، فيفضّلون الانتظار في الصالون. يدارون نفاد صبرهم بابتسامات بلهاء وهم ينقرون على الأرض بأرجلهم. يستحثّون زوجاتهم بتذمّر، ثمّ يساعدونهنّ على ارتداء معاطفهنّ. وقبل الانصراف، تقرفص المرأة على كعبيها الدقيقين، وهي توشك على فقدان توازنها، وتمسح الدمع عن خدّي الطفل. «لا تبكِ يا حبيبي، ستحضنك لويز وتروي لك حكاية، أليس كذلك يا لويز؟» فتهزّ المربية رأسها مؤيّدة. تمسك بمفردها الطفل الباكي الذي يحاول الإفلات منها ليلحق بأمّه. وكانت ستيفاني تبغضهم، وتشمئزّ من الطريقة التي كانوا يضربون بها أمّها، والفظاظة التي يكلمونها بها.

وبينما تُرقِد لويز الصغار، تروح ستيفاني تفتّش في الأدراج والعلب، وتُخرج الألبومات المخبّأة تحت الطاولات الواطئة. وكانت لويز تنظّف كلّ شيء. تغسل الأواني، وتمسح طاولة

المطبخ. تطوي الملابس التي رمتها السيدة على السرير قبل خروجها، بعد أن حارت في أيّ الفساتين ترتدي. وكثيراً ما كانت تنبّهها ستيفاني قائلة: «أنت لست ملزمة بغسل الأواني. تعالي اجلسي معي». لكن لويز تعشق هذا العمل. كانت شغوفة برؤية الفرح على محيّا الوالدين عندما يعودان ويلاحظان بأنّهما استفادا من خدمة منزلية مجانيّة علاوة على رعاية الأطفال.

* * *

رافقت ستيفاني وأمُّها ذات مرّة آل روفيي، الذين اشتغلت عندهم لويز لسنوات، إلى بيتهم الريفي. كانت ستيفاني في عطلة. على أنها لم تذهب إلى هناك من أجل التشمس والاستمتاع بالتهام الفواكه مثل أطفال أصحاب البيت. كما أنّها لم تذهب للتحرر من القواعد، والسهر إلى ساعة متأخرة من الليل، وتعلّم سياقة الدراجة الهوائية. لم يُؤتَ بها إلى هناك إلا لعدم وجود مكان آخر يأويها. طلبت منها أمّها ألا تثير الانتباه، وأن تلعب بهدوء، ولا تُظهر بأنّها تستمتع بإقامتها هناك. «رغم زعمهم أنّنا هنا في عطلة مثلهم، فإنهم سيتضايقون إن لاحظوا أنّك تبالغين في الاستمتاع». وفي وقت الطعام، تجلس إلى جانب أمّها في المطبخ، بعيداً عن أصحاب البيت وضيوفهم. وهي تذكر كيف أنّهم لم يكونوا يكفّون عن الكلام على مائدة الطعام، بينما تأكل هي وأمّها في صمت وقد طأطأتا رأسيهما.

لم يكن آل روفيي يطيقون الطفلة الصغيرة. ينزعجون من وجودها، وهو أمر كان واضحاً يكاد يُلمَس. كانوا يُكنّون حقداً

مخزياً لهذه الطفلة ذات الوجه الجامد. ولمّا كانت تجلس في الصالون إلى جانب هيكتور وأخته تانكريد لمشاهدة التلفاز، لم يكن الوالدان يستطيعان مداراة ضيقهما، فيطلبان منها خدمة لإبعادها -«ستيفاني، هلّا أحضرت نظارتيّ. لقد وضعتهما عند المدخل»- أو يقولان لها إن أمّها تنتظرها في المطبخ. ومن حسن حظّها أنّ لويز كانت تحظر عليها الاقتراب من المسبح موفِّرة بذلك على آل روفيي التدخّل لطردها منه.

* * *

في اليوم الأخير من العطلة، دعا هيكتور وتانكريد أبناء الجيران ليلعبوا معهما في الترامبولين الجديدة. لحقت بهم ستيفاني التي بالكاد تكبر الأولاد، وراحت تقوم بقفزات خطيرة وشقلبات مثيرة جعلت الأطفال يصرخون من الحماس، وهو ما أثار انتباه السيدة روفيي، فتدخّلت وطلبت منها أن تترك الصغار يلعبون. اقتربت من زوجها وقالت بصوت مسموع: «هذه آخر مرّة نصطحبها معنا. أظنّ أنّ الأمر شاقّ عليها كثيراً. لا شكّ أنّها تتألّم من رؤية هذه الأشياء التي لا حقّ لها فيها». فابتسم الزوج بلطف.

أمضت مريم الأسبوع بكامله وهي تنتظر هذه الأمسية. فتَحتْ باب الشقّة. رأت حقيبة لويز موضوعة على الأريكة في الصالون، وسمعت أصواتاً طفوليّة تغني قبل أن ترى لُعباً عبارة عن فأر أخضر ومراكب تطفو على الماء. تقدّمت على أطراف أصابع قدميها فرأت لويز جاثية على ركبتيها، عاكفة على حوض الاستحمام، وميلا تغطّس دميتها ذات الشعر الأحمر في الماء، بينما راح آدم يصفق ويغنّي. تقتطع لويز كتلاً من رغوة الصابون برفق، وتضعها على رأسي الطفلين وهما يضحكان من هذه القبعات التي تطير بمجرّد النفخ عليها.

كانت مريم وهي عائدة إلى البيت في الميترو متلهّفة لرؤية طفليها. لم ترَهما طوال الأسبوع، وعاهدت نفسها على أن تتفرّغ لهما تماماً هذا المساء. ستستلقي معهما في السرير الواسع، وتدغدغهما وتقبّلهما، وتضمّهما إليها حتّى يصيبهما الدوار ويحاولان الإفلات منها.

التقطت نفساً عميقاً وهي تراقبهما مختبئة خلف باب الحمام.

استبدّت بها الرغبة لتلامس بشرتيهما، وتطبع على أيديهما الصغيرة قبلات محمومة، وتسمع صوتيهما الحادّين يناديانها «ماما». وجرفها دفق من عاطفة الأمومة بغتة، وهو أمر يصيبها بالبلاهة أحياناً، فيجعل أموراً تافهة تبدو في عينيها كما لو أنّها استثنائية، ويحمِلها على التأثر لأتفه الأشياء.

طوال هذا الأسبوع وهي تعود متأخرة في المساء فتجدهما نائمين. وقد حدث لها أحياناً، بعد انصراف لويز، أن نامت وهي ملتصقة بميلا في سريرها الصغير، تتنفّس شعرها الذي يفوح برائحة حلوى الفراولة. ستسمح لهما هذا المساء بأشياء محظورة عليهما في العادة. سيأكلان في الفراش ساندويتشات بالزبدة المملّحة والشوكولا، وسيتفرّجان على الرسوم المتحرّكة، وسينامان في وقت متأخّر وهما ملتصقان بها. وفي الليل، ستتلقّى على وجهها ركلاتهما، ولن تستغرق في النوم خوفاً من سقوط آدم من فوق السرير.

* * *

يغادر الطفلان الماء، ويجريان عاريين للارتماء في حضن أمّهما. أمّا لويز فتنهمك في ترتيب الحمام وتنظيف الحوض، فتقول لها مريم: «لا داعي لذلك، لا تزعجي نفسك. لقد تأخّرتِ. بإمكانك الانصراف. لا بدَّ أنّك قضيت يوماً شاقّاً». وتتظاهر لويز بعدم سماعها، وتستمرّ -مقرفصة- في تلميع جنبات الحوض، وترتيب لعب الأطفال المتناثرة.

تطوي لويز المناشف، وتفرغ آلة الغسيل ثمّ تهيء سرير

الطفلين. تعيدُ وضع الإسفنج في خزانة المطبخ، وتخرج إناء تضعه على النار. ولا تملك مريم إلا أن تنظر إليها عاجزة، فتقول لها بصوت رزين لعلّها تقنعها: «اتركي هذا، أؤكد لك أنّني سأفعله». وتحاول أن تنزع من بين يديها الإناء، لكنّ لويز تتشبّث به، وتدفع مريم بلطف وهي تقول: «استريحي. لا بدَّ أنّك متعبة. اغتنمي الفرصة واستمتعي بطفليك. سأحضّر لهما العشاء في طرفة عين».

هكذا صارت لويز بمرور الأيام لا غنى عنها في البيت. لم تعد مريم تهاتفها لتخبرها بتأخراتها، كما لم تعد ميلا تسأل عن موعد عودة أمّها. حَسبُها أنّ لويز حاضرة. وهي تضطلع بمسؤوليات هذا البيت الهشّ بمفردها. واستمرأت مريم هذه العناية، وشرعت تتخلّى للمربّية تدريجياً عن مزيد من المهام، إلى أن صارت أشبه بتلك الأطياف التي تنقل قطع الديكور على خشبة مسرح في الظلام: ترفع مقعداً أو تدفع عموداً من الكارتون أو جزءاً من جدار. صارت حاضرة في الكواليس، تتحرّك بقوّة، لكن خلسة. هي من تمسك بالخيوط الشفافة التي لا يمكن أن ينجح السحر من دونها. هي فيشنو، الإله المغذي، الغيور والحامي، هي الذئبةُ التي يشربون من ثديها، وهي نبع سعادتهم الأسرية الذي لا ينضب.

ينظرون إليها ولا يرونها. حضورها حميمي، لكنّه غير مرئي. وصارت تمعن في التبكير صباحاً، ولا تغادر إلا في وقت متأخّر. وذات صباح، بينما خرجت مريم من الحمام عارية، وجدت نفسها أمام المربية التي راحت تحدّق فيها من دون حرج. وقالت

مريم مطمئنة نفسها: «ما شأنها بجسدي؟ قد لا تكون متعوّدة على الاستحياء من هذه الأشياء».

* * *

ومضت لويز تشجّع الزوجين على الخروج. وكانت تردّد على نحو آلي: «ينبغي أن تستمتعا بشبابكما». وعملت مريم بنصيحتها، فقد وجدتها امرأة لبيبة وطيّبة. وذات مساء دعاهما عازف، كان بول قد تعرّف إليه حديثاً، إلى شقّة تقع في الدائرة السادسة. ازدحم المدعوون في صالون صغير واطئ السقف، والتصق بعضهم ببعض. وخيّم جوّ بهيج على هذا المكان الضيّق الذي ما لبث أن تحوّل إلى حلبة رقص. وراحت زوجة العازف، وهي امرأة شقراء طويلة تضع أحمر شفاه أرجواني، توزّع على الحاضرين لفافات حشيش وأقداح فودكا.

ومضت مريم تتحدّث إلى أناس لا تعرفهم، ومع ذلك تضحك معهم ملء شدقيها. وقضت ساعة وهي جالسة في المطبخ على الطاولة. وعند الثالثة صباحاً، اشتدّ الجوع بالضيوف، فحضّرت لهم الحسناء الشقراء بيضاً مخفوقاً مقليّاً بالفطر. تحلّقوا حول المقلاة وراحوا يأكلون بحيث لم تعد تُسمع سوى قعقعة شوكاتهم.

وعند عودة بول ومريم في الرابعة صباحاً، وجدا لويز متكوّمة فوق الأريكة، ضامّة رجليها إلى صدرها، ومُشبكة ذراعيها، وقد غلبها النوم، فسحب عليها بول لحافاً بلطف، وقال: «لا ينبغي أن نوقظها. يبدو أنّها تغطّ في النوم». ومنذئذٍ بدأت لويز تنام في

الشقة مرّة في الأسبوع أو مرّتين. ومن دون أن يخوضوا صراحة في الأمر، بدأت تبني عُشّها بأناة داخل الشقة.

* * *

وبدأت أوقات عملها تطول أكثر فأكثر، وهو ما أثار قلق بول. «لا أريدها أن تتّهمنا يوماً باستغلالها». فتعِدُه مريم بأنّها ستستعيد زمام الأمور، وتلوم نفسها على تقاعسها رغم ما عُرف عنها من صرامة وحزم. ستتحدّث إلى لويز، وتعيد الأمور إلى نصابها. وبمقدار انزعاجها من هذا الجانب، كانت في قرارة نفسها مسرورة من تطوّع لويز للقيام بأشغال لم تطلبها منها قطّ. وكانت تبالغ في الاعتذار للمربّية. لما تعود متأخّرة، تقول لها: «المعذرة إن كنت بالغت في استغلال طيبوبتك»، فتردّ لويز دائماً: «أنا هنا لهذا الغرض. فلا تنزعجي».

كثيراً ما كانت مريم تقدّم لها هدايا، أقراطاً تشتريها من متجر رخيص عند مدخل محطّة الميترو، أو كعكة برتقال، وهي الحلوى الوحيدة التي تعرفها لويز. ولم تكن تتردّد في التبرّع لها أيضاً بالملابس التي لم تعد ترتديها، مع أنّها كانت تتحرّج من ذلك، وتعتقد أنّه لا يخلو من مهانة. لذلك كانت تبذل قصارى جهدها لكي لا تجرح مشاعر مربّيتها، أو تثير غيرتها وأحزانها، حتّى إنّها كانت لمّا تشتري ملابس جديدة لنفسها أو لطفليها، تخفيها في كيس قديم من القماش لا تفتحه إلا بعد انصراف المربّية. وهي لباقة كثيراً ما كان يشيد بها بول.

وما لبثت لويز أن صارت معروفة لدى جميع معارف بول ومريم. وإذا كان بعضهم صادفوها في الحي أو في الشقّة، فإنّ آخرون سمعوا بفضائلها المثالية التي جعلتها تبدو كما لو أنّها خرجت من إحدى قصص الأطفال.

وصارت «عشاءات لويز» عُرفاً وموعداً يسيل له لعاب كلّ أصدقاء الزوجين. فلويز تعرف ذوق كلٍّ منهم. تعرف أنّ إيما تُخفي فقدان شهيتها خلف أيديولوجيا نباتية معقّدة، وباتريك، شقيق بول، شغوف باللحم والفطر. وقد كانت مآدب العشاء تنظَّم في الغالب مساء الجمعة. تقضي لويز فترة ما بعد الظهر بكاملها تطبخ، بينما يلعب الطفلان عند قدميها. ثمّ ترتّب الشقة، وتنسّق باقة الزهر وتهيّء المائدة على نحو بديع. كانت قد جابت كلّ أرجاء باريس بحثاً عن بضعة أمتار من قماش، خاطت منه غطاء للمائدة. ولمّا تفرَغُ من ترتيب السُّفرة، وتصبّ النبيذ في الدورق، تغادر الشقّة خلسة. وقد يحدث أن تلتقي بالضيوف في الردهة أو عند مدخل محطّة الميترو، فتجيب بخجل على إطرائهم وابتساماتهم.

وذات مساء، ألحَّ عليها بول لتبقى. لم يكن يوماً كباقي الأيام. «هناك أشياء كثيرة ينبغي أن نحتفل بها». ذلك أنّ باسكال عهد لمريم بقضيّة كبيرة، وهي على وشك أن تربحها بفضل دفاعها الذكيّ المستميت. ثمّ إنّ بول مبتهج أيضاً. فبينما كان قبل أسبوع يعمل في الاستوديو على تأليفاته الموسيقية الخاصة، دخل عليه مغنٍّ شهير. تجاذبا أطراف الحديث لساعات. تحدّثا عن أذواقهما المشتركة، وعن الترتيبات التي ينوي كلّ منهما القيام بها، وعن التجهيزات المدهشة التي يمكن أن يحصلا عليها، وانتهى الأمر بالمغني أن اقترح على بول إخراج أسطوانته المقبلة. وقال بول بنبرة حاسمة: «هناك سنوات يبتسم فيها الحظ للمرء في كلّ شيء، وعليه أن يعرف كيف يستمتع». وأمسك بكتفي لويز، ونظر إليها باسماً، ثمّ قال: «مهما كان المانع، ستتعشّي معنا!».

لاذت لويز بغرفة الأطفال، وبقيت لمدّة طويلة مستلقية إلى جانب ميلا، تداعب فوديها وشعرها، وتراقب تحت ضوء المصباح الخفيف الأزرق وجه آدم البريء. وظلّت متردّدة في مغادرة الغرفة. كانت تسمع باب الشقة يُفتح، وضحكات تتردّد في الممرّ، وصوت فتح زجاجة شامبانيا، وجَلَبة أريكةٍ تُدفع بمحاذاة الجدار. وفي الأخير سوّت شعرها في الحمام، ووضعت على جفنيها طبقة من مسحوق التجميل البنفسجي. أمّا مريم، فلا تضع مساحيق التجميل قطّ. وقد ارتدت هذا المساء سروال جينز وقميصاً من قمصان بول، عمدت إلى طيّ كمّيه.

طوّقت مريم كتفي لويز وقالت: «أظنّكما لا تتعارفان؟ أقدّم لك لويز يا باسكال. لا شكّ في أنك تعرف أنّ الجميع يغبطوننا

عليها!»، ثمّ ابتسمت وهي منزعجة من تلقائية تصرّفها. «أقدّم لك باسكال، يا لويز. رئيسي في العمل».

«رئيسك! لا تقولي هذا الكلام، قولي بالأحرى رفيقك في العمل. فنحن نعمل سويّة»، ثمّ ضحك بصخب وهو يمدّ يده إلى لويز.

* * *

جلست لويز في زاوية على الأريكة، وتشبّثت أصابعها الطويلة بكأس الشامبانيا. كانت متوتّرة، مثل غريبة أو منفية لا تفهم لغة المحيطين بها. وكانت تتبادل ابتسامات رقيقة مرتبكة مع الجالسين حول المائدة الذين يرفعون الكؤوس بين الفينة والأخرى إشادة بمواهب مريم، وبمغنّي بول الذي راح أحدهم يدندن بأنغام أغنيّة من أغانيه. كانوا يتحدّثون عن أمورهم المهنيّة، وعن الإرهاب والعقار. وتحدّث باتريك عن العطلة التي سيقضيها في سيريلانكا.

أمّا إيما، التي وجدت نفسها بجانب لويز، فراحت تحدّثها عن أبنائها. هذا موضوع تستطيع لويز أن تخوض فيه. تستعرض إيما هواجسها على لويز، فتحاول طمأنتها. وكرّرت لها مراراً: «هذه أمور رأيتها كثيراً. لا داعي لأن تقلقي». وتغبط إيما، التي تسكنها هواجس كثيرة ولا تجد من ينصت إليها، مريمَ على هذه المربية الاستثنائية. وتبدو إيما امرأة هادئة وإن كانت يداها المشدودتان تفضحان توتّرها. رغم البسمة التي لا تفارق شفتيها، فهي حسودة ومعقّدة على نحو رهيب.

تقطن إيما بالدائرة العشرين، في منطقة تحوّلت فيها المنازل المهجورة إلى دور حضانة. تعيش في منزل صغير، زُيّن بأسلوب بالغ الرفعة حتّى ليشعُر المرء داخله بالضيق. يتهيّأ لزائره أنّ الصالون، المكتظّ بالتذكارات والطنافس، أُعِدَّ لإثارة الغيرة أكثر ممّا أُعِدَّ لتوفير الراحة.

تقول للويز: «الوضع في مدرسة الحي كارثي. الأطفال يبصقون على الأرض، وحين تمرّين أمامهم تسمعين شتائم بذيئة. ينعتون بعضهم بعضاً بـ«العاهرات» و«اللواطيين». لا أزعم أنّ لا أحد في المدارس الخاصة يقول: «قحبة»، إنّما هم يقولونها على نحو مختلف، أليس كذلك؟ يعرفون على الأقل أنّ عليهم ألا يجهروا بها أمام الكبار. يدركون أنّ ذلك قلّة أدب».

بل سمعت إيما أنّ الآباء يودعون أبناءهم المدرسة وهم ما زالوا في لباس النوم، متأخّرين عن موعد الدخول بنصف ساعة. وأنّ أمّاً محجّبة رفضت مصافحة المدير. «من الأمور التي تحزّ في نفسي أنّ ابني أودين هو التلميذ الأبيض الوحيد في الفصل. أدرك أنّني لا أملك خياراً آخر، لكنني لا أعرف ماذا سأصنع إن عاد يوماً إلى البيت وهو يذكر الله ويتحدّث بالعربية». تبتسم مريم، فتسأل إيما: «لعلّك فهمت قصدي، أليس كذلك؟».

ونهضوا ضاحكين ليجلسوا إلى المائدة. أجلس بول إيما بجانبه، أمّا لويز فسارعت إلى المطبخ. ولمّا عادت إلى الصالون حاملة الطبق، استقبلوها بالتهليل والهتاف. وقال بول بصوت حادّ مرح: «انظروا إليها كيف تتورّد من الخجل!» وتصير لويز، لبرهة، محطّ كلّ الأنظار. «كيف صنعتِ هذه الصلصة؟»، «ما ألطف

فكرة الزنجبيل هذه!»، ويمعن الضيوف في الإشادة بمهارتها. أمّا بول فيغتنم الفرصة للحديث عن «مربيتنا» مثلما يتحدّث المرء عن الأطفال وكبار السن بمحضرهم. ثمّ يسكب النبيذ، وسرعان ما ينتقل الحاضرون من حديث الطعام إلى الخوض في مواضيع أخرى أهمّ. وشيئاً فشيئاً تعلو أصواتهم وهم يدخّنون ويسحقون أعقاب السجائر في الصحون، فتطفو على ما تبقى فيها من مرق. ولم يفطن أحد بانسحاب لويز إلى المطبخ وانهماكها في تنظيفه.

ورشقت مريم بول بنظرة حانقة. رغم تظاهرها بالضحك من نكاته، كانت مستاءة منه. لمّا يثمل، يصير بذيئاً، ثقيل الظل، ويفقد حسّه الواقعي. لا يكاد يُسرف في الشرب حتّى يشرع في توجيه الدعوات على نحو مقزّز، وتقديم وعود لا يستطيع الوفاء بها، بل قد يسرف في الكذب. ومن دون أن ينتبه إلى انزعاج زوجته، فتح زجاجة نبيذ أخرى ثمّ قال وهو يضرب بيده على جانب المائدة: «سترافقنا المربية في العطلة القادمة! على المرء أن يستمتع بالحياة قليلاً، أليس كذلك؟»، فابتسمت لويز وهي تحمل بين يديها كومة صحون.

* * *

وفي صباح اليوم الموالي، استيقظ بول بقميصه مكمّشاً، والنبيذ الأحمر ما زال يلطّخ شفتيه. وبينما هو واقف تحت رشاش الحمام، استحضر نتفاً من السهرة. تذكّر اقتراحه ونظرات زوجته الشزراء، فشعر بنفسه سخيفاً ومُتعَباً. وتردّد بين البحث عن طريقة يُصلح بها هذه الغلطة، أو يتجاهلها ويتصرّف كما لو أنّ شيئاً لم

يقع. ينسى ويترك الأمر للزمن. هو يعلم أنّ مريم ستسخر منه ومن وعود عربدته. ستلومه على عبثه المالي وطيشه في معاملة لويز. «ستصيبها وعودك العرقوبية بالإحباط، لكنّ لطفها سيمنعها من تذكيرك بما قلت». ستُخرج له مريم الفواتير، وتذكّره بالواقع. وستختم كلامها قائلة: «أنت تتصرّف دائماً بهذا النحو حين تشرب».

لكن مريم لا تبدو غاضبة هذا الصباح. ابتسمت في وجهه ابتسامة لطيفة وهي مستلقية على الأريكة وآدم بين ذراعيها. كانت ترتدي منامة رجّالية تكبرها. جلس إلى جانبها، ووضع وجهه على عنقها الذي يفوح بذلك العطر الذي يعجبه، فسألته: «هل صحيح ما قلت بالأمس؟ أأنت جادّ في مسألة سفر لويز معنا هذا الصيف؟ ستكون أوّل مرّة نقضي عطلة حقيقية، ولويز ستسرّ غاية السرور. وهل يمكن ألا أن تُسرّ؟».

تركت لويز نافذة غرفة الفندق مواربة من شدّة الحرّ. ولم يوقظ صراخ السكارى وصرير فرامل السيارات آدم وميلا اللذين كانا يغطّان في النوم وقد تدلّت ساق كلّ منهما من السرير. وبما أنّهم لن يقضوا غير ليلة واحدة في أثينا، وطلباً للاقتصاد، باتت لويز مع الأطفال في غرفة ضيقة. سهروا الليل، وضحكوا كثيراً، وناموا في وقت متأخّر. كان آدم في منتهى الفرح. رقص في الشارع على أرصفة أثينا بينما راح بعض المارّة المسنّين يصفّقون له إعجاباً. أمّا لويز فلم تستهوها المدينة التي جابوها تحت أشعة شمس حارقة. ولم تكن تفكر إلا في السفر إلى الجزر التي حكت عنها مريم للأطفال خرافات وأساطير.

لا تحسن مريم رواية القصص. فهي تنطق الكلمات المعقدة على نحو بالغ السوء، وتنهي كلّ جملها بعبارات من قبيل: «أرأيت؟»، «أفهمت؟»، على أنّ لويز أنصتت لحكاية زيوس وإلهة الحرب بشغف طفولي. وعلى غرار ميلا، أحبّت إيجه الذي أعار زرقته للبحر، هذا البحر الذي ستركبه لأوّل مرة.

وكان عليها في الصباح أن تسحب ميلا من السرير، وتجرّدها

من ملابسها وهي لا تزال نائمة. وفي سيارة الأجرة التي حملتهم إلى مرفأ بيري، حاولت أن تتذكّر الآلهة الإغريقية، لكن ذاكرتها لم تحتفظ بشيء. كان عليها أن تدوّن في مفكّرتها ذات الغلاف المنمّق أسماء هؤلاء الأبطال. لو أنّها فعلت، لأمكنها أن تعود إليها الآن. ولمّا بلغوا المرفأ، وجدوا السيارات مزدحمة عند بابه، ورجال الشرطة يحاولون تنظيم حركة المرور. ورغم الوقت المبكّر، كان الحرّ شديداً، وآدم الجالس على ركبتي لويز يتصبب عرقاً. وكانت ثمّة لوحات ضوئية ضخمة تشير إلى الأرصفة التي ترسو عندها البواخر المتوجّهة إلى الجزر، لكنّ بول لم يفهم منها شيئاً، وهو ما أثار حفيظته. هزّ السائق الذي لا يتحدّث الإنجليزية كتفيه باستسلام، وأدار سيارته ليعود أدراجه. أدّى له بول الحساب ثمّ ترجّلوا، وهرولوا نحو الرصيف وهم يسحبون الحقائب وعربة آدم. وبينما كان أفراد طاقم السفينة يستعدّون للإبحار، لاح لهم أفراد الأُسرة المرتبكين التائهين وهم يلوّحون. ولولا الحظّ لكانت السفينة انصرفت عنهم.

وما كادوا يأخذون أماكنهم حتّى نام الطفلان، آدم بين ذراعي أمه، وميلا على ركبتي بول. أمّا لويز فكانت متشوّقة لرؤية البحر ومحيط الجزر، لذلك صعدت إلى سطح السفينة. رأت امرأة مستلقية على ظهرها فوق أحد المقاعد، ترتدي كسوة سباحة من قطعتين: كيلوت رفيع وقطعة ثوب بالكاد تخفي ثدييها. يعلو رأسها شعر أشقر رمادي جاف، لكنّ ما لفت انتباه لويز هي بشرتها. بشرة أرجوانيّة، تكسوها بقع بُنيّة كبيرة. وفي بعض الأماكن من جسدها، بين فخذيها وعلى خدّيها، وعند قاعدة

ثدييها، تظهر قروح كالحروق. استلقت بلا حراك كجسدٍ مسلوخ عُرِضَ هناك ليتفرّج عليه الركّاب.

شعرت لويز بدوار البحر. التقطت أنفاساً عميقة، وأغلقت عينيها ثمّ فتحتهما. بدأت تفقد توازنها، ولم تعد تقوى على الحركة، فجلست على أحد المقاعد بعيداً عن جانب السفينة. كانت متشوِّقة للنظر إلى البحر، وحفظ صورة كلّ هذه الجزر وشواطئها البيضاء في ذاكرتها. أرادت أن تُنقش في ذهنها صورة المراكب الشراعيّة الراسية وظلالها الدقيقة التي تغوص في الماء. رغبت في كلّ ذلك، لكنّها شعرت بالغثيان. صارت الشمس حارقة، وتزايد عدد الركاب الذين ينظرون إلى المرأة المستلقية على المقعد. كانت تضع غطاء على رأسها، ولا بدَّ أنّ الريح حجب عنها صوت الضحكات المخنوقة والتعليقات الهامسة. ولم تستطع لويز تحويل بصرها عن هذا الجسد المهزول الذي ينضح عرقاً. كانت الشمس تلتهمه مثلما يلتهم الجمر قطعة لحم.

استأجر بول غرفتين في دار ضيافة واقعة فوق مكان مرتفع من الجزيرة، يشرف على شاطئ أكثر رواده من الأطفال. غربت الشمس، فغطّت الخليجَ طبقةٌ من الضوء المتورّد. وكانوا متوجّهين إلى العاصمة أبولينيا مشياً على الأقدام. سلكوا طرقاً يحفّ بها الصبّار وأشجار التين. وفي أعلى منحدر صخري عثروا على دير يرتاده سيّاح بلباس السباحة. وقد افتُتِنت لويز بجمال هذه الأمكنة، وبهدوء الأزقّة الضيّقة، والساحات الصغيرة التي تنام فيها القطط. جلست على حائط قصير، ودلّت رجليها في الفراغ، ومضت تنظر إلى امرأة عجوز تكنس فسحة صغيرة قبالة بيتها.

ورغم أن الشمس الغاربة غاصت في البحر، لم يكن الظلام قد خيّم بعد. اصطبغ الضوء بألوان فاتحة انتزعت تفاصيل المنظر من العتمة المكتسحة: هيئة جرس على سطح كنيسة، صورة جانبية لتمثال حجري نصفي. أمّا البحر والساحل المدغل، فظهرا كما لو أنّهما مسترخيان وغارقان في سبات عميق، وقد أسلما نفسيهما لليل.

بعد أن أنامت لويز الطفلين، جفاها النوم. أخذت لها مكاناً في شرفة غرفتها وراحت تتأمّل الخليج المستدير. وفي الليل هبّ ريح بحري مشبع بطعم الملح والخيال، فنامت على كرسي طويل، ولم تلتحف إلا بوشاح دقيق. وما كاد الفجر يطلع حتى أيقظتها برودة الصباح. فلمّا رأت المشهد الذي كشف عنه ضوء الشروق كادت تهتف. بهرها هذا الجمال الخالص البسيط الذي يأسر القلوب.

واستيقظ الأطفال في غاية الحيوية كذلك، وهما لا يلهجان إلا بالبحر. يريد آدم أن يتدحرج في الرمل بينما ترغب ميلا في رؤية الأسماك. وما كادا ينهيان فطورهما حتّى نزلا إلى الشاطئ. ارتدت لويز ثوباً أثار ابتسامة مريم. فستان فضفاض برتقالي اللون، أشبه بجلباب، كانت قد أعطته إياها السيدة روفيي قبل سنوات. ثمّ علقت المربّية: «لقد لبسته كثيراً».

دهنت الطفلين بالكريم الواقي من الشمس، فانطلقا جاريين إلى الرمل، ثمّ جلست بمحاذاة جدار حجريّ قصير، في ظلّ شجرة صنوبر وقد طوت ركبتيها، ومضت تنظر إلى بريق الشمس المنعكس على البحر. لم يسبق لها أن رأت مثل هذا الجمال.

أمّا مريم فاستلقت على بطنها واستغرقت في قراءة رواية، بينما غفا بول الذي جرى سبعة كيلومترات ذلك الصباح قبل تناول الفطور. وراحت لويز تشيّد قصوراً من الرمل، وتنحَت سلحفاة ضخمة دمّرها آدم مراراً، وأعادت نحتها بصبر وأناة. ثمّ سحبتها ميلا من يدها، وقد أرهقتها حرارة الشمس، وهي تقول: «تعالي إلى الماء يا لويز». لكنّ المربية رفضت، وطلبت منها أن تنتظر.

«هلّا ساعدتني لنُتِمّ هذه السلحفاة؟» وعرضت على الطفلة ما جمعت من محار، وطلبت منها أن تضعه بعناية على قوقعة السلحفاة العملاقة.

لم يعد ظلّ شجرة الصنوبر يقيهم من أشعة الشمس الحارقة، وأخذت لويز تتصبّب عرقاً، ولم يعد لها ما تتذرّع به للطفلة الملحاحة. تشبّثت ميلا بيدها، لكن لويز رفضت أن تنهض. وفجأة شدّت معصم الطفلة ثمّ دفعتها بعنف حتّى سقطت، وصرخت بها: «ألن تتركيني؟».

فتح بول عينيه، وهرولت مريم نحو ميلا التي أجهشت بالبكاء، فمضت تواسيها وهي ترشق لويز بنظرات حانقة. تراجعت لويز وقد تملّكها الخجل. وبينما كانا يهمّان باستفسارها عمّا فعلت، همست: «ألم أخبركما بأنّني لا أعرف السباحة؟».

لزم بول ومريم الصمت، وأشارا لميلا التي مضت تسخر منها بأن تصمت. أخذت ميلا تهتف هازئة: «لويز لا تعرف السباحة، يا لها من طفلة صغيرة!». وشعر بول بالضيق، وهو ضيق سرعان ما استحال إلى غضب. نقم على لويز، وامتعض من تمثيلها دور الضحية بعد أن سمّمت يومهم. قام من مكانه وأخذ الطفلين إلى الماء. أما مريم، فعادت إلى الاستغراق في القراءة.

أفسد عليهم حزن لويز أجواء ذلك الصباح، ولمّا جلسوا إلى المائدة في باحة ذلك المطعم الصغير، لاذوا بالصمت. وبينما كانوا يأكلون، قام بول وحمل آدم بين ذراعيه، ومشى باتّجاه متجر الشاطئ، ثمّ عاد وهو ينط فوق الرمل الحارق، حاملاً علبة مضى

يُلوِّح بها أمام لويز ومريم، وقال: «ها هو»، لكنّ المرأتين ظلتا صامتتين، ثمّ مدت لويز ذراعها بانقياد، فأدخل بول شارة ثبّتها فوق معصمها، وقال: «أنت هزيلة يا لويز، رغم أنها شارة أطفال، فقد ناسبت مقاس معصمك!».

طوال الأسبوع وبول يرافق لويز لتسبح. يستيقظان باكراً. وبينما تمكث مريم والطفلان بجانب مسبح دار الضيافة الصغير، ينزل الزوج والمربية إلى الشاطئ الذي يكون ما زال خالياً من رواده. وما إن يصلا إلى الرمل المبلّل، حتّى يمسك بيدها، ويمشيان في الماء لفترة طويلة وهما ينظران إلى الأفق. يتقدّمان إلى أن تنفصل أقدامهما بلطف عن الرمل، ويشرع جسداهما يطفوان. عندئذٍ يُداهِمُ لويز ذعرٌ لا تستطيع إخفاءه، وتطلق صرخة صغيرة تنذر بول بأنّ عليه أن يشدّ على يدها أكثر.

كان يتضايق في البداية من لمس بشرتها. ولمّا بدأ يعلمها السباحة على ظهرها، وأخذ يضع يداً عند رقبتها والأخرى تحت ردفيها، تبادرت إلى ذهنه فكرة عابرة بليدة، فضحك منها في قرارة نفسه وقال: «حتى لويز تملك ردفين». فلويز تملك جسداً يرتعش تحت يديه. جسد لم يسبق له أن رآه أو حتّى توقّع وجوده، هو من كان يصنّفها في عالم الأطفال أو المستخدمين. هو من لم يكن يراها. ومع ذلك فلويز ليست بشعة. تبدو وهي مستسلمة لراحتيه كدمية صغيرة. انفلتت بضع خصلات شقراء من قبّعة الاستحمام

التي اشترتها لها مريم، ولاحت على وجنتيها وأنفها الذي لفحته الشمس بقع نمش صغيرة. ولأوّل مرّة لاحظ بول زغباً خفيفاً أشقر على وجهها، أشبه بذاك الذي يكسو الكتاكيت التي فقست من توّها. على أنّ حشمة لويز وتحفّظها منعا بول من إبداء أيّ شعور فاجر.

تنظر لويز إلى قدميها وهما يغوصان في الرمل فتتراءى لها من خلال الماء أشياء صغيرة برّاقة تخالها شذرات ذهب. عندئذٍ تتذكّر ما قالت مريم على متن السفينة من أنّ ازدهار جزيرة سيفنوس يعود إلى ما كانت تزخر به أرضها من مناجم الذهب والفضة في الماضي. ويغطي الماء فخذي المربّية، ثمّ يغمر فرجها. ماء شفاف، وبحر هادئ لا موج فيه يباغتها، ويرش صدرها. وبينما هي تتطلّع إلى الرضّع الجالسين جنب الماء تحت أعين آبائهم القريرة، يصل الماء إلى خصرها، فيضيق صدرها، وتجد صعوبة في التنفس. تنظر إلى السماء الرائعة، وتتحسّس على ذراعيها النحيلين الشارات الملونة بالأصفر والأزرق التي رسم عليها جراد بحر وسمندل. تحدّق في بول بنظرات متضرّعة، فيقول: «أقسم أنه لا خطر عليك. ما دمت واقفة على قدميك، فلا خطر». لكنّ الذعر يستبدّ بها، تشعر كما لو أنّها ستفقد توازنها وتنكفئ، فتبتلعها الأعماق، ويغمر رأسَها الماءُ بينما تروح ساقاها تضربان في الفراغ إلى أن تُنهك.

ما زالت تذكر لمّا كانت طفلة أنّ أحد زملائها في الصف سقط في بركة عند مدخل قريتها. كانت البركة عبارة عن مساحة صغيرة يغمرها ماء راكد موحل، تنبعث منه في الصيف رائحة

كريهة. وكان الأطفال يتردّدون عليها للعب رغم البعوض وحظر الآباء. ها هنا تذكرتْ، وهي مغمورة بمياه بحر إيجه الزرقاء، تلك المياه السوداء النتنة، وذلك الطفل الذي عثروا على جثّته ووجهه مدفون في الوحل. وتنبّهت إلى ميلا تطفو بجانبها وهي تضرب برجليها.

كانوا يرتقون السلم الحجري المفضي إلى السطح المجاور لغرفة الأطفال وهم يترنحون من السُّكْر، فمضت لويز تتشبّث بذراع بول كلّما صادفت درجة عالية. جلستْ تحت شجرة قرنفل ذات أزهار قرمزية لتلتقط أنفاسها، فرأت في الأسفل نساءً ورجالاً يرقصون ويشربون. ذلك أنّ الحانة نظمت حفلة «Full moon party» على رمل الشاطئ. وترجم لها بول هذه التسمية: حفلة اكتمال البدر، هذا البدر الذي أمضوا الليلة كلّها وهم يشيدون بجماله. لم يسبق لها أن رأت مثله. بدر رمادي دافئ، أشبه ببدور طفولتها.

استمتعوا وهُم على سطح المطعم العالي بمنظر خليج سيفنوس وبلون الشفق الذهبي، ولفت بول انتباهها إلى الغيوم الشبيهة بالدانتيلا. وحين رأت السيّاح يلتقطون صوراً لهذا المنظر، أخرجت هي أيضاً هاتفها المحمول وهمّت بالتصوير، لكن بول ضغط على يدها بلطف لكي يجلسها وهو يقول: «لا فائدة من التصوير، من الأفضل أن تحفظي هذه الصورة في داخلك».

إنّها أوّل مرّة يتعشون فيها من دون الطفلين. فقد اقترحت عليهم صاحبة دار الضيافة التكفّل بهما، ولا سيما أنّهما في سنّ أبنائها، وأنّ الألفة استوثقت بينهم منذ بداية الإقامة. فاجأ العرض مريم وبول. أمّا لويز فكان من الطبيعي أن ترفض في بادئ الأمر. قالت إنّها لا يمكن أن تفارق الطفلين، وأنّ عليها أن ترقدهما أوّلاً، فهذا شغلها. لكنّ صاحبة دار الضيافة قالت بفرنسية ركيكة: «لقد نال منهما التعب بعد أن سبحا طوال اليوم. سينامان بسرعة».

انطلقوا إذاً نحو المطعم سيراً بخطى حثيثة وهم لا ينبسون. ولمّا جلسوا للعشاء، شربوا أكثر من المعتاد. وكان بول ومريم متوجّسان من هذا العشاء. فيمَ سيتحدّثان؟ ماذا سيحكيان لبعضهما بعضاً؟ واقتنعا بأنّ أفضل شيء يفعلانه هو أن يصطحبا لويز، ويدخلا بذلك البهجة على قلبها، «حتّى تشعر بأنّنا نقدّر العمل الذي تقوم به، أفهمت؟». تحدّثوا إذاً عن الأطفال وعن المناظر الخلابة والاستحمام في اليوم الموالي، وتقدُّم ميلا في تعلّم السباحة. تجاذبوا أطراف الحديث، وودّت لويز أن تحكي شيئاً، أيّ شيء، قصّة تخصّها، لكنّها لم تجرؤ. كانت تلتقط أنفاساً عميقة، وتهمّ بالكلام، ثمّ تحجم وتلوذ بالصمت. واسترسلوا في الشرب، فصار الصمت لطيفاً وهادئاً. وطوّق بول كتفيها بذراعه. ذلك أنّ النبيذ اليوناني أشعره بالنشوة. شدّ كتفها بيده الضخمة وابتسم لها كما لو أنّه يبتسم لصديق قديم، لرفيق أبديّ. أما هي فراحت تحدّق بابتهاج في وجه الرجل، في بشرته التي لوحتها الشمس، وأسنانه البيضاء، وشعره الذي لابسته شقرة بسبب الريح

والملح. ومضى يهزّها كما يهزّ المرء صديقاً خجولاً أو مغموماً، أو يخضخض شخصاً يريده أن ينبسط. لو تجرّأت لوضعت يدها على يد بول، ولشدّتها بين أصابعها النحيلة. لكنها لم تجرؤ.

سحرتها خفّة دم بول، وطريقة ممازحته للنادل الذي أهداهم مشروباً هاضماً. استطاع في بضعة أيام أن يتعلّم رصيداً لا بأس به من الألفاظ اليونانية، يُضحك بها التجار، ويحصل على تخفيضات. وقد صار الناس يعرفونه، والأطفال في الشاطئ لا يرغبون في اللعب إلا معه، وهو يستجيب لطلباتهم ضاحكاً. يحملهم على ظهره، ويرتمي في الماء معهم. وهو يأكل بنهم لا يصدّق حتّى إنّ مريم تضايقت من ذلك. أمّا لويز فاستلطفت هذا النهم الذي يدفعه إلى طلب كلّ ما يوجد على قائمة الطعام. «نأخذ هذا الطبق أيضاً لنجرّبه، أليس كذلك؟» ويرفع بأصابعه قطعاً من اللحم أو من الفلفل أو الجبن، يزدردها ببهجة طفولية.

ولمّا عادوا إلى الفندق، كانوا يلتوون من الضحك، فوضعت لويز إصبعاً على شفتيها ونبهتهما إلى عدم إيقاظ الصغيرين. وبدت لهما هذه الإشراقة المسؤولة فجأة سخيفة. لقد جاء دورهم ليلعبوا لعبة الأطفال بعد أن صرفوا النهار بكامله في العناية بالصغار. تملّكتهم هذا المساء خفّة غير معهودة، وخلّصهم السُّكْر من الهموم المتراكمة، والتوتّرات التي يخلقها الصغار بينهم، بين الزوج والزوجة، وبين الأمّ والمربية.

كانت لويز تعلم أنّ هذه اللحظة عابرة، ولاحظت كيف ينظر بول إلى كتف زوجته بنهم. كانت بشرة مريم تبدو من خلال فستانها الأزرق الفاتح أكثر احمراراً، وأشبه بلون الذهب. ثم

شرعا يرقصان وهما يترنحان. كانا يرقصان على نحو أخرق، وراحت مريم تضحك ضحكات بلهاء كما لو أنّ أحداً لم يمسك بخصرها على هذا النحو منذ مدّة طويلة، كما لو أنّ اشتهاءها بهذه الكيفية يشعرها بالتفاهة. ووضعت خدّها على كتف زوجها، وأدركت لويز بأنّهما سيتوقّفان، وسيودّعانها متظاهرين بمغالبة النوم. ودّت لو تستبقيهما، لو تتشبّث بهما، لو تكشط الأرضية الحجرية بأظافرها. ودّت لو تجمدّهما وهما يرقصان ويضحكان، وتحتفظ بهما كتحفة بديعة. وهي مقتنعة الآن على نحو مؤلم بأنّ سعادتها بين أيديهما، وأنهما لها، وهي لهما.

ضحك بول ضحكة خفية، وهمس لزوجته بشيء لم تسمعه لويز. ثمّ أمسك يد مريم بحزم، ومِثل طفلين رزينين، تمنّيا للمربّية ليلة سعيدة. مضت تتابعهما وهما يصعدان السلم الحجري الذي يقود إلى غرفتهما، وبدأت صورتهما تتضبّب إلى أن تلاشت، وسُمع صوت الباب يُصفق. عندئذٍ استغرقت لويز في أحلامٍ فاجرة. سمعت رغماً عنها، ومن دون إرادتها، شهيق مريم وتأوّهاتها. سمعت حفيف الأغطية وصرير السرير وهو يرتطم بالجدار.

فتحت عينيها، فانتبهت لآدم وهو يبكي.

روز غرينبرغ

ستصف السيدة غرينبرغ هذه المسافة القصيرة التي قطعتها في المصعد مئة مرّة على الأقل. خمسة طوابق بعد انتظار قصير بالدور السفلي. مسافة قطعتها في أقل من دقيقتين، لكنّها صارت أطول لحظة مؤلمة في حياتها. وهي تردّد لنفسها بلا كلل أنّها لو تنبّهت لزفير لويز، لو لم تغلق مصاريع نوافذها لتنام قيلولتها، لكانت منعت وقوع المأساة، ولغيّرت مجرى الأحداث. ستبكي بسبب هذا التقصير في الهاتف، ولن تنجح بناتها في تهدئتها. وسيشتدّ نحيبها حين سيقول لها رجال الشرطة بجفاء: «ما كان بوسعك أن تفعلي شيئاً على كلّ حال». ستحكي كلّ شيء للصحافيين الذين تابعوا المحاكمة. وستتحدّث عن هذا الأمر لمحاميّة المتّهمة التي بدت لها متعالية ولا مبالية، وستكرّر الكلام نفسه أثناء المحاكمة، لمّا نودي عليها للإدلاء بشهادتها.

* * *

ستردّد في كلّ مرّة أن لويز لم تكن عادية. هي من كانت دائمة البسمة، بالغة اللطف، وقفت متسمّرة أمام الباب الزجاجي بينما

جلس آدم على درج وهو يصرخ، وميلا تقفز وتدفعه بقوّة. وقفت لويز جامدة في مكانها، كلّ ما كان يتحرّك فيها هي شفتها السفلى التي مضت ترتعش ارتعاشاً خفيفاً. كانت يداها مضمومتين، وعيناها مخفوضتين. ولم يكن يبدو أنّها تسمع ضجيج الطفلين. هي من كانت حريصة على عدم إزعاج الجيران، وحسن معاملتهم، لم تكلّم الصغيرين، وتصرفت كما لو أنّها لا تسمعهما.

كانت السيدة غرينبرغ تقدّر لويز كثيراً، بل كانت شديدة الإعجاب بهذه المرأة الأنيقة التي ترعى الطفلين أحسن رعاية. كانت تمشط شعر الصغيرة ميلا، وترسله دائماً في ضفيرتين مشدودتين، أو تسوّيه بعقيصة مثبتة بواسطة عقدة. ويبدو أنّ آدم كان شديد التعلّق بها. «الآن وقد رأيت هذا، ما كان عليّ أن أقول ذلك. لكنني في ذلك الوقت كنت أقول في نفسي إنّهما محظوظان».

ما إن حطّت مقصورة المصعد في الدور الأرضي حتّى أمسكت لويز آدم من طوقه وسحبته إلى داخلها وميلا تتبعها وهي تدندن. عندئذٍ تردّدت السيدة غرينبرغ في الصعود معهم. وخلال بضع ثوانٍ تساءلت حول ما إذا كانت ستتظاهر بالعودة إلى الردهة لإفراغ علبتها البريدية. ذلك أنّها لم تستلطف سحنة لويز المتجهّمة، وخشيت من أن تبدو لها المسافة التي سيقطعها المصعد إلى الدور الخامس لا نهاية لها. لكنّ لويز أمسكت الباب مفتوحاً للجارة التي وقفت بمحاذاة الجدار، وقُفّة التسوّق بين رجليها.

* * *

«أكانت تبدو سكرانة؟».

تنفي السيدة غرينبرغ ذلك على نحو قاطع. كانت لويز تبدو عادية. ما كانت لتتركها تصعد مع الطفلين لو اشتبهت في أنها... وهزئت منها المحامية ذات الشعر الدهني، وذكّرت المحكمة بأنّ روز تعاني من الدوار، ولديها مشاكل في البصر. وأنّها كانت على وشك الاحتفال بعيد ميلادها الخامس والستين، وأنّ بصرها ضعيف. فهي تعيش في الظلام مثل فأرة عمياء، والضوء الساطع يصيبها بالصداع. هذا هو ما جعلها تغلق المصاريع، وهو السبب أيضاً في أنّها لم تسمع شيئاً.

كادت تشتم هذه المحامية أمام هيئة المحكمة، وودّت لو تُسكتها، وتهشّم وجهها. ألا تخجل؟ ألا تعرف الحياء؟ فمنذ الأيام الأولى من المحاكمة، تحدّثت عن مريم كما لو أنّها «أمٌّ غائبة»، وعن زوجها كما لو أنّه «مشغِّل متعسّف». وصفتها بأنّها امرأة أعماها الطموح والأنانية، وأنّ لا مبالاتها هي التي أفقدت لويز المسكينة رشدها. وقد شرح صحافيٌّ للسيدة غرينبرغ كان جالساً بجانبها أنّ هذا الكلام لا ينبغي أن يغضبها ويثير حفيظتها. فهو مجرّد «تكتيك دفاعي». لكنّ روز ظلت مستاءة مع ذلك.

* * *

لم يكن أحد يتحدّث عن الأمر في العمارة، لكن السيدة غرينبرغ واثقة من أنّ جميع القاطنين لا يغمض لهم جفن حين يجنّ الليل. وما أكثر القلوب التي تنقبض، والدموع التي تُذرف. وهي تعرف أنّ الأجساد تتقلّب في المراقد، وتتلوّى من دون أن

يعرف النوم إليها سبيلاً، حتى إنّ الزوجين الساكنين في الطابق الثالث آثرا الانتقال إلى مسكن آخر. وطبعاً لم يعد آل ماسي إلى بيتهما أبداً. أما روز فبقيَت في شقّتها رغم الأشباح وذكرى تلك الصرخة المروعة.

بعد أن استيقظت من قيلولتها ذلك اليوم، فتحت مصراعي النافذة، وعندئذٍ سمعته. يعيش معظم الناس حياتهم كاملة من دون أن يُقدّر لهم سماع مثل ذلك الصراخ. صراخ لا يُسمع إلا في ميادين الحروب والخنادق، وفي عوالم وقارات أخرى بعيدة. لا صلة له بالصراخ المعهود ها هنا. دام عشر دقائق على الأقل. صدر دفعة واحدة، واستمرّ من دون تنفس ولا كلام إلى أن صار مبحوحاً، وتشبّع بالدم والمخاط والغضب. كلّ ما نطقت به في نهاية المطاف هو «اتصلوا بالطبيب!». لم تطلب المساعدة، ولم تقل: «النجدة!»، بل كرّرت في المرّات القليلة التي استعادت فيها وعيها «اتصلوا بالطبيب!».

قبل تلك المأساة بشهر، صادفت السيدة غرينبرغ لويز في الشارع. بدت مهمومة، وانتهى بها الأمر إلى أن تكلّمت عن مشاكلها المادية، وعن مالك البيت الذي يتحرّش بها، والديون التي تراكمت عليها، وحسابها البنكي المَدين دائماً. تحدّثت وأفصحت عمّا في داخلها بسرعة كبيرة كما يفرغ بالون من الهواء.

تظاهرت السيدة غرينبرغ بأنّها لم تفهم. طأطأت رأسها وقالت: «الظروف صعبة بالنسبة إلى كلّ الناس»، فأمسكت لويز بذراعها وقالت: «أنا لا أشحذ. أنا قادرة على العمل، في الصباح الباكر أو في الليل، عندما ينام الأطفال، أستطيع العمل

كخادمة، أرتّب البيت وأكوي الملابس، وما شئتِ من الأشغال». لو أنّها لم تشدّ على يدها بقوّة، لو لم تنظر إليها مليّاً بمقلتيها السوداوين، فيما يشبه الاحتقار أو التهديد، لربّما كانت روز غرينبرغ قبلت عرضها، ولكانت الأحداث أخذت منحى آخر مهما يقل رجال الشرطة.

تأخّرت الطائرة كثيراً، وحطّوا بباريس في بداية المساء. وودّعت لويز الطفلين وداعاً حارّاً: قبّلتهما بحرارة، وحضنتهما وشدّت عليهما بذراعيها، وقالت لمريم وبول اللذين دلفا إلى المصعد لينزلا إلى موقف السيارات بالمطار: «نلتقي يوم الاثنين، إلى الاثنين! لا تتردّدوا في الاتصال إن احتجتم إليّ».

قصدتْ محطّة قطار الشبكة الجهوية السريعة في إيل دو فرانس. كانت عربة القطار خالية، فالتصقت بإحدى النوافذ وراحت تلعن منظر الأرصفة التي تتسكّع عليها جماعات من الشباب، والعمارات المقشّرة والشرفات، ووجوه رجال الأمن العدائيّة. أغمضت عينيها وأخذت تستعيد شريط ذكريات الشواطئ اليونانية وغروب الشمس والعشاء قبالة البحر. مضت تستدعي هذه الذكريات مثلما يستدعي الصوفية الخوارق. ولمّا فتحت باب شقتها الضيّقة، أخذت يداها ترتعشان. واستحوذت عليها رغبة عارمة في تمزيق غلاف الأريكة، وتكسير زجاج النافذة. وأحست بدواخلها تغلي، وبألم يمزّق أحشاءها، ووجدت صعوبة في تمالك نفسها من الصراخ.

وفي صبيحة يوم السبت، شبكت يديها على صدرها ومكثت في السرير إلى العاشرة. راحت تنظر، وهي مستلقية، إلى الغبار المتراكم على الثريا الخضراء. وقالت في نفسها كيف استأجرت شقّة بهذا القبح؟ اكترتها مفروشة، ولم تغيّر شيئاً من زينتها. بعدما توفي زوجها جاك، وطُردت من البيت، اضطُرّت إلى البحث عن مسكن. تسكّعت لأسابيع من دون أن تعثر على وكر تأوي إليه، إلى أن أشفقت من حالها ممرّضة في مشفى «هنري موندور»، فدلّتها على هذه الشقة في «كريتوي». أكّدت لها المرأة الشابة أنّ صاحب الشقّة لا يطلب إلا القليل من الضمانات، ويقبل الأداء نقداً.

وقفت لويز، وسحبت مقعداً ووضعته تحت الثريا، ثمّ أخذت قطعة قماش وشرعت تمسح المصباح والثريا بقوة حتّى كادت تنتزعها من السقف. ها هي واقفة على أطراف أصابع قدميها تهزّ الغبار الذي يتساقط على شعرها كنُدَف ضخمة رمادية. وما إن حلّت الساعة الحادية عشرة حتّى كانت قد فرغت من التنظيف. مسحت زجاج النوافذ من الداخل والخارج، ومرّرت إسفنجة بالصابون على المصاريع، ولمّعت أحذيتها ورصّتها بمحاذاة الجدار.

لربّما نادوا عليها. هي تعلم أنّهم يتغذون يوم السبت أحياناً بالمطعم، وهو خبر استقته من ميلا. يذهبون إلى حانة صغيرة حيث يكون من حقّ الطفلة الصغيرة أن تطلب ما تشاء، ومن حقّ آدم أن يذوق، تحت نظرات والديه المشبعة بالحنان، رأس ملعقة من الخردل أو الليمون. هي أيضاً تودّ لو تفعل مثلهم. ففي حانة

حاشدة، مليئة بصخب الأطباق وجلبة النُدُل، لن تخاف الصمت. ستجلس بين ميلا وأخيها، وتسوّي المنديل الأبيض الكبير على ركبتي الطفلة الصغيرة، وتُطعم آدم، ملعقة بعد ملعقة. وستنصت لبول ومريم وهما يتحدّثان. سيمضي الوقت بسرعة، وستشعر بنفسها على أحسن ما يرام.

لبست فستانها الأزرق الذي يبلغ أعلى كاحليها، ويُشَدّ من الأمام بواسطة صفّ من الخرز الأزرق الصغير. أرادت أن تكون جاهزة إذا ما احتاجوا إليها، وطلبوا منها اللحاق بهم إلى مكان ما بسرعة. لا شكّ أنّهم نسوا طول المسافة بين شقّتهم ومسكنها، وما يكلفها التنقل كل يوم من وقت وجهد. جلست في المطبخ ومضت تنقر بأطراف أظافرها على مائدة الفورميكا.

فات وقت الغذاء، وتلبّدت السماء بغيوم داكنة، وهبّت ريح قوية على شجر الجمّيز ثمّ شرع المطر يسقط، فبدأت لويز تشعر بالضيق. فكرت في أن تخرج لشراء الخبز واستنشاق الهواء والمشي قليلاً بما أنهم لم يتصلوا. لكن ماذا عساها تفعل في هذه الأزقة المهجورة؟ والمقهى الوحيد الموجود في الحيّ لا يعدو أن يكون ملاذاً للسكارى. كان عليها أن تقرّر مبكراً، وتستقلّ الميترو. لو أنّها فعلت، لكانت تجوّلت في باريس بين الآباء الذين يتسوّقون للدخول المدرسي، ولذابت في الزحمة، وتبعت الحسناوات المستعجلات أمام المتاجر الكبرى، ولكانت هامت على وجهها قرب لامادلين بمحاذاة الموائد الصغيرة التي يشرب عليها الناس القهوة، ولقالت: «عفواً» لمن يدفعونها.

إنّ باريس في نظرها واجهة عرضٍ ضخمة. وهي تحبّ التنزّه

في حيّ الأوبرا بخاصة. تنزل شارع روايال، وتسير في شارع سانت-أونوري. تمشي متثاقلة وهي تنظر إلى المارّة وواجهات المتاجر. وتشتهي كلّ شيء: أحذية جلد الأيل، معاطف الجلد المقلوب، حقائب نسائية من جلود الثعابين، الفساتين الأنيقة والقمصان النسائية القصيرة بالدانتيلا. تهفو نفسها لشراء قمصان الحرير وصدريات الكشمير الوردية والجوارب الصاعدة الضيقة والسترات القصيرة. وتحلم بحياة تستطيع فيها الحصول على كلّ ما تتوق إليه نفسها، بحيث تكفي إشارة من إصبعها للبائعة لتأتيها بما تريد.

ويحلّ يوم الأحد، ويستمرّ معه القلق والسأم. أحدٌ حالك قضته مستلقية في السرير. نامت بفستانها الأزرق، فتكمّش قماشه الاصطناعي تماماً، وجعلها تتصبّب عرقاً. فتحت عينيها مراراً في الليل من دون أن تعرف ما إذا كانت قضت ساعة أم شهر، وأهي نائمة عند مريم وبول أم بجانب جاك في منزل بوبيني؟ أغمضت عينيها، واستغرقت من جديد في نوم عنيف مضطرب.

تكره لويز عطلة نهاية الأسبوع. لمّا كانت ستيفاني لا تزال تسكن معها، كانت تشتكي من الفراغ يوم الأحد، ومن أنّها لا تحظى بما تنظمه لويز من أنشطة للأطفال الآخرين. لذلك ما إن لمست في نفسها القدرة على الاعتماد على نفسها، حتّى بدأت تتغيب عن الشقّة. كانت تقضي ليلة الجمعة خارج البيت مع المراهقين، ولا تعود إلا في الصباح بسحنة شاحبة، وعينين محمرّتين تطوّقهما هالة سوداء. تعبر الصالون مطأطأة الرأس وهي تموت من الجوع، تفتح الثلاجة، ومن دون حتّى أن تجلس،

تروح تحشر أصابعها في العلب التي هيّأت لويز لجاك. وذات مرّة، صبغت شعرها بالأحمر، وثقبت أنفها، وأخذت تختفي الأسبوع بكامله. وفي يوم من الأيّام اختفت بالمرّة. لم يعد يشدّها شيء إلى منزل بوبيني، لا الثانوية التي تركتها منذ مدّة طويلة، ولا لويز.

بلّغت أمّها عن غيابها بالطبع، وكان جوابهم هو أنّ: «الهروب من البيت في هذا السن شيء مألوف. انتظري قليلاً وستعود». ولم تبحث عنها. وعلمت من الجيران فيما بعد أنّها موجودة في الجنوب، وأنّها عاشقة ولهانة، وكثيرة التنقل. وقد استغرب الجيران كيف أنّ لويز لم تسأل عن مزيد من التفاصيل، ولم تبالِ كثيراً بالمعلومات الشحيحة التي أتوها بها.

اختفت ستيفاني. طوال حياتها وهي تشعر بأنّ وجودها يضايق جاك، وضحكاتها توقظ الأطفال الذين ترعاهم لويز. كما كانت تخشى من أن تزاحم أصحاب البيت، وأن تُغلِق فخذاها الضخمتان وهيئتها البدينة الممرّ الضيق في الشقة، أو أن تشغل كرسيّاً يرغب فيه شخص آخر. كما كانت تشعر بأنّها لا تحسن التعبير إن تحدّثت، وتثير الاستياء إن ضحكت، مهما كانت براءة ضحكها. وانتهى بها الأمر أن صارت تمعن في التخفي. وكان من الطبيعي أن تتوارى عن الأنظار من دون ضجّة ولا سابق إنذار.

* * *

وفي صباح يوم الاثنين، غادرت لويز بيتها قبل شروق

الشمس. مشت نحو قطار الشبكة الجهوية السريعة، ثم غيّرت الخطّ عند الفجر، وانتظرت على الرصيف، وعبرت شارع لافاييت قبل أن تنعطف إلى شارع هوتفيل. كانت كجندي يصرُّ على التقدُّم مهما كلّفه الثمن، وأشبه بكلب كسر أطفال أشقياء قائمته.

كان سبتمبر حارّاً ومشمساً. فكّرت لويز في أن تأخذ الطفلين، يوم الأربعاء بعد المدرسة، إلى الحديقة ليلعبا ويشاهدا الأسماك في الأكواريوم، ويتسلّيا قليلاً. ركبوا قارباً في بحيرة غابة بولوني، وحكت المربية لميلا أنّ الطحالب الطافية على الماء هي في الحقيقة شَعر ساحرة شريرة بغيضة. وقد كان الجوّ في نهاية الشهر من اللطف بحيث قرّرت مرافقتهما إلى إحدى الحدائق الباريسية الكبرى. وعندما وصلوا إلى محطة الميترو، اقترح عليها رجل مغاربي عجوز مساعدتها في حمل عربة آدم لنزول السلّم، لكنّها شكرته وحملت الطفل وعربته بمفردها. تبعها العجوز، وسألها عن سنّ الطفلين، وبينما كانت تهمّ بإخباره بأنّهما ليسا طفليها، أحنى عليهما وقال: «يا لهما من طفلين جميلين!».

تحبّ ميلا وآدم الميترو كثيراً. إن لم تمسكهما لويز، يعدوان على الرصيف، ويصعدان إلى العربة وهما يدوسان أقدام الركّاب. كلّ ذلك من أجل الجلوس بجانب النافذة. عندئذٍ يروحان ينظران

مشدوهين، ثمّ يقفان ويأخذ آدم في تقليد أخته التي تتمسّك بالعمود الحديدي وتحاكي سائق القطار.

وفي الحديقة، جرت المربية معهما، ضاحكتهما ودلّلتهما، واشترت لهما مثلجات وبالونات، والتقطت لهما صوراً مستلقيين فيها على سجاد من الأوراق الميتة، صفراء فاتحة وحمراء قانية. وسألتها ميلا عن سبب اصطباغ بعض الأشجار بلون ذهبي متوهّج، بينما بدت أخرى بجانبها، ومن النوع نفسه، كما لو تعفّنت، تُراوحُ بين الأخضر والبني الغامق، فعجزت لويز عن الجواب وقالت: «سنسأل ماما».

ركبوا القطار الدوار، فشرع الطفلان يصرخان من الفزع والفرح. وحين دخل إلى الأنفاق المظلمة، واندفع بسرعة فائقة في المنحدرات، شعرت لويز بالدوار، فشدّت آدم إلى ركبتيها بقوّة. ثمّ أبصروا في السماء بالوناً يطير كأنّه مركبة فضائية رُسمت عليها صورة ميكي.

* * *

ثمّ جلسوا على العشب ليأكلوا، فمضت ميلا تسخر من لويز التي خافت من طاووس كبير اقترب منهم. جلبت معها المربّية غطاءً صوفياً قديماً كانت مريم قد كوّمته ووضعته تحت سريرها. غسلته لويز ورتقته. وناموا ثلاثتهم على العشب. ولمّا أيقظ البرد لويز، وجدت آدم ملتصقاً بها. لعلّ الأطفال سحبوا عنها الغطاء. التفتت، فلم ترَ ميلا. نادتها ونادتها حتى أثارت انتباه الناس. سألوها: «ماذا جرى يا سيدتي؟ هل لنا أن نساعدك؟» لكنّها لم

تجب، وراحت تصيح وهي تجري وآدم بين ذراعيها: «ميلا، ميلا». دارت على الدوّامات، وجرت في كلّ مكان. ثمّ ترقرقت عيناها بالدموع، وودّت لو تشدّ المارّة وتهزّهم، وتدفع هؤلاء الغرباء الذين يتزاحمون هناك، وهم يمسكون بأيدي أطفالهم. ثمّ عادت أدراجها نحو المزرعة الصغيرة، وأحسّت بأسنانها تصطك بقوة حتّى أنّها لم تعد قادرة على مناداة الصبيّة. وأحسّت بألم حادّ في جمجمتها، وبركبتيها لم تعودا تقويان على حملها. أوشكت على أن تسقط أرضاً، وتصاب بالخرس والشلل.

ثمّ أبصرتها في الطرف الآخر من أحد المماشي. كانت جالسة على مقعد تتناول المثلجات، وامرأة محنية عليها. ارتمت لويز على الطفلة وهي تقول: «ميلا! يا لك من مجنونة؟ ماذا أصابك؟ أين اختفيت هكذا؟»، وحضنت المرأة الستينية الغريبة الطفلة، وضمّتها إليها والْتفَتت إلى لويز وقالت: «ما هذا الإهمال؟ ماذا كنت تفعلين؟ كيف تركتها وحيدة؟ كان بالإمكان أن أطلب منها رقم هاتف والديها وأتّصل بهما. لا أظن أنّ تصرّفاً كهذا سيروقهما!».

لكن ميلا أفلتت من بين ذراعي المرأة. دفعتها ورشقتها بنظرة شزراء قبل أن تتشبّث بساقي لويز، فأحنت عليها المربية وحملتها، ومضت تقبّل رقبتها الباردة، وتمسح على شعرها. ثمّ نظرت إلى وجه الطفلة الشاحب، وقالت معتذرة عن إهمالها: «صغيرتي، ملاكي، هريرتي!» راحت تلاطفها وتغمرها بالقبل، وتضمّها إلى صدرها.

فلمّا رأت العجوز الطفلة تتكوّم بين ذراعي المرأة الشقراء،

هدأت، ولم تعد تدري ما تقول. راحت تنظر إليهما وهي تهزّ رأسها على نحو لا يخلو من عتاب. لعلّها كانت ترغب في إثارة فضيحة، لربما كان ذلك سيسلّيها. كانت ستجدُ قصّة تحكيها لو أنّ لويز استشاطت غضباً، وتطلّب الأمر الاتّصال بالوالدين، لو أنّ العجوز توعّدتها ونفّذت وعيدها. وانتهى الأمر بالمرأة الغريبة أن قامت من المقعد، وانصرفت وهي تقول: «حسناً، ينبغي أن تنتبهي للطفلة».

شيّعتها لويز وهي تبتعد. التفتت مرّتين أو ثلاثاً، فابتسمت لها على سبيل العرفان. وبمقدار ما كانت تبتعد، كانت لويز تضغط الطفلة الصغيرة إليها حتّى قالت لها متوسّلة: «كفى يا لويز، إنك تخنقينني». حاولت الطفلة التخلّص من هذه الضمّة، وراحت تتخبّط، وتضرب برجليها، لكن المربية كانت مطبقة عليها. ألصقت شفتيها بأذن ميلا وقالت لها بصوت هادئ وفاتر: «لا تبتعدي أبداً، هل سمعت؟ أتريدين أن تُسرَقي؟ أن يسرقك رجل شرّير؟ هذا ما سيحدث لك المرّة القادمة إن ابتعدتِ. مهما تصرخي وتبكي، لن يهُبّ لإنقاذك أحد. أتعرفين ماذا سيصنع بك؟ ألا تعرفين؟ سيأخذك ويخفيك، ولن تري والديك قطّ». وبينما كانت لويز تهمّ بوضع الطفلة على الأرض، فاجأها ألم حادّ في الكتف. صرخت وحاولت أن تتخلّص من الطفلة التي عضّتها إلى أن سال دمُها. نفذت أسنان ميلا في اللحم، وظلّت متشبّثة بذراع لويز كحيوان هائج.

* * *

أخفت لويز عن مريم ذلك المساء حادث الهرب والعضّة. ولزمت ميلا أيضاً الصمت من دون أن تتوعّدها المربّية أو تهدّدها. ومنذئذٍ نشأ تواطؤ خفيّ بينهما. وشعرا بأنّ هذا السر يوحّد بينهما أكثر من أيّ رابط آخر.

جاك

كان جاك يحبّ أن يأمرها بالصمت. لم يكن يطيق صوتها الذي يصيبه بالتوتّر، «ألن تخرسي؟». لم تكن تستطيع وهي إلى جانبه في السيارة تمالك نفسها من الثرثرة. تخشى الطريق، والكلامُ يهدّئ روعها. لهذا كانت تستغرق في مونولوجات تافهة، حتّى إنّها بالكاد تلتقط أنفاسها بين الجمل. كانت تردّد بلا كلل أسماء الشوارع، وتستعرض ما عاشت فيها من ذكريات.

تشعر بانزعاج زوجها، وتدرك أنّه إنّما رفع صوت المذياع وفتح النافذة وراح يدخن ليسكتها ويثبط عزيمتها. كان غضبه يخيفها، لكن عليها أن تعترف أيضاً بأنّه يثيرها أحياناً. كانت تجد متعة في إغاظته، بحيث كان يوقف السيارة على جانب الطريق، ويمسك برقبتها، ويهدّد بإسكاتها إلى الأبد.

كان جاك رجلاً ثقيل الظلّ، صاخباً. ومع تقدّمه في السنّ، صار حادّ الطبع، متغطرساً. لمّا كان يعود من العمل مساءً، يقضي ساعة على الأقل في الحديث عن تبرّمه من فلان أو علان. كلّ الناس في اعتقاده يحاولون سرقته وخداعه واستغلال وضعه. فبعدما سُرِّح من العمل للمرة الأولى، لاحق مشغّله أمام محاكم

الشغل. وقد كلّفته القضية كثيراً من الوقت والمال، لكن انتصاره فيها ولّد لديه شعوراً بالقوة بحيث استطاب النزاعات والمحاكم. وفي وقت لاحق، ظنّ أنّه سيغتني من مقاضاة شركة تأمين بعد حادثة سير عادية. ثمّ هاجم جيرانه القاطنين في الدور الأوّل من العمارة. وقضى أيّاماً كاملة منهمكاً في تحرير رسائل مبهمة ومتوعّدة. راح يجوب مواقع المساعدات القضائية على الإنترنت بحثاً عن أبسط فصل قانوني يستطيع استغلاله لصالحه. كان شخصاً سريع الغضب وسيئ النية إلى حدٍّ بعيد. يحسد الآخرين على نجاحاتهم، وينكر جدارتهم بها، بل كان يقضي يومه أحياناً في المحكمة التجارية منتشياً بمحن الآخرين، مستمتعاً بإفلاسهم المباغت، وتكالب نوائب الدهر عليهم.

كان يقول للويز: «أنا لستُ مثلكِ. لست ذليل النفس لأجمع قاذورات الأطفال. هذا العمل لا يقوم به إلا حثالة الناس». وكان يجدُ زوجته بالغة اللطف. وإذا كان هذا يثيره ليلاً، لمّا يكون في الفراش، فإنّه يغيظه بقيّة الوقت. ولم يكن يكفّ عن تقديم النصح للويز التي تتظاهر بالإصغاء: «كل ما كان عليك أن تفعليه هو مطالبتهم بالتعويض»، «ما كان عليك أن تعملي ولو دقيقة واحدة زائدة من دون أجر»، «اذهبي إلى الطبيب، واحصلي على إجازة مرضية، ماذا تنتظرين منهم؟».

كان مشغولاً جدّاً بحيث لا يجد الوقت للبحث عن عمل. تملأ مشاغله التافهة كلّ يومه. ومن ثمّة قليلاً ما كان يبرح الشقّة. يشعل التلفاز، وينشر ملفّاته على المائدة الواطئة. وفي تلك المرحلة، ضاق ذرعاً بالأطفال، وأمر لويز بأن تعمل في شقق

مشغّليها. كان سعال الأطفال وصراخهم، بل حتّى ضحكاتهم تضايقه. أمّا لويز، فصارت تصيبه بالقرف، وتثير اهتماماتُها السخيفة المحصورة في الأطفال حفيظته. كان يقول لها: «إنك تقزّزينني، أنت وشؤون العجائز التي تملأ ذهنك». ذلك أنه يعتقد أنّ قصص الرضّع والعجزة لا تصلح لأن تُحكى، بل ينبغي أن تُعاش بعيداً عن أعين الناس من دون أن يعلم بها أحد. إنّها أسوأ مرحلة يعيشها ابن آدم، لأنّه لا يكون حرّاً، ولا يتمتّع بالاستقلال. مرحلة يكون فيها الجسدُ عبارة عن آلة مقرفة ونتنة ومستباحَة. جسد يطلب الحبّ والماء، و«يجعلك تشعر بالاشمئزاز من كونك إنسان».

في هذه الفترة، اقترض المال واشترى حاسوباً وجهاز تلفاز جديد وأريكة كهربائية تقوم بالتدليك. وكان يقضي ساعات أمام شاشة الحاسوب الزرقاء حتّى تملأ أنفاسُه الموبوءة الغرفة، أو يجلس على أريكته الجديدة، قبالة التلفاز، ويروح يضغط على أزرار آلة التحكم على نحو محموم، كطفل بلّدته كثرة اللعب.

* * *

لعلّه كان يوم سبت، لأنّهما كانا يتناولان وجبة الغذاء معاً. وكان جاك غاضباً، لكن أقلّ من المعتاد. وضعت لويز تحت المائدة مغسلة مليئة بالماء المثلّج غطّس فيها قدميه. ما زالت تتمثل في كوابيسها هاتين القدمين البنفسجيتين، والكاحلين المتورّمين المريضين اللذين كان يطالبها دائماً بتدليكهما. كانت قد مضت بضعة أيام على ملاحظة لونه الشاحب وعينيه الكابيتين.

وتنبّهت أيضاً إلى أنّه حين يتكلّم يقطع الجمل ليلتقط أنفاسه. حضّرت طبق لحم على الطريقة الإيطالية، وعند اللقمة الثالثة، وبينما كان يهمّ بالكلام، تقيّأ في الصحن. فار القيء من فمه دفعة واحدة كما يحدث للرضّع. عندئذٍ أدركت أنّ الأمر خطير، وأنّه لا ينبئ بخير. هبّت واقفة، ولمّا رأت وجه جاك الذاهل، قالت: «لا تخف، ليس في الأمر خطورة». تكلّمت بلا توقّف، ولامت نفسها لأنّها وضعت كثيراً من النبيذ في المرق الذي هو حامض أصلاً، واستعرضت عدداً من النظريات السخيفة حول حرقة المعدة. مضت تتكلّم وتتكلّم، تسدي النصائح، وتعاتب نفسها وتعتذر. ولم يعمل هذرها المتهدّج والمرتبك إلا على مفاقمة قلق جاك، قلق أشبه بما يشعر به من زلّت قدمه وهو يرتقي سلماً في مكان مرتفع، فيتراءى له جسده هاوياً من علٍ، على وشك أن تتهشّم عظامه وتتناثر أشلاؤه. لو أنّها صمتت، لبكى لا محالة، ولطلب منها المساعدة أو ربّما قليلاً من الحنان. لكنّها ظلت تتحدّث بلا توقف وهي تخلّص المائدة من الصحون، وتمعن في تنظيف الأرضية.

ومات جاك بعد ثلاثة أشهر من ذلك. يَبِس مثلما تتيبَّس فاكهة تُرِكت في الشمس. ويوم دفنه، سقط الثلج، ومال لون الضوء إلى الزرقة. وألفت لويز نفسها وحيدة.

هزّت رأسها أمام المُوَثّق الذي فسّر لها متأسّفاً أنّ جاك لم يترك غير الديون. حدّقت في الغدّة الدرقية المتورّمة المضغوطة تحت طوق القميص، وتظاهرت بقبول الوضع. لم ترث من جاك سوى نزاعات مجهضة، ودعاوى قضائية مؤجّلة، وفواتير تنتظر

الأداء. وحجز البنك على الشقّة الصغيرة الواقعة في بوبني، وأمهلوها شهراً للإفراغ. وهكذا حزمت أمتعتها بمفردها. رتّبت بعناية الأغراض القليلة التي خلّفتها ستيفاني وراءها، ولم تدرِ ما تفعل بأكوام الوثائق التي راكمها بول. فكّرت في أن تحرقها في الحديقة الصغيرة. قالت في نفسها لربّما وصلت ألسنة النار، بشيء من الحظ، إلى جدران المنزل، بل إلى جدران الحي بكامله. وهكذا ستأتي النار على هذا الجزء من حياتها. ستتسمّر هناك على نحو متكتّم وتنظر إلى ألسنة اللهب وهي تلتهم ذكرياتها، فتنسيها مشيها الطويل في الشوارع المظلمة والمقفرة، وأيّام الآحاد الرتيبة التي قضتها بين جاك وستيفاني.

لكن لويز حملت حقيبتها، وأدارت المفتاح في الباب مرّتين ثمّ انصرفت، تاركة في ردهة الشقة الصغيرة صناديق الذكريات وملابس ابنتها ومخطّطات زوجها.

وقد باتت تلك الليلة في غرفة بأحد الفنادق أدّت إيجارها قبل أسبوع من ذلك. كانت تُعدّ لنفسها ساندويتشات تأكلها أمام التلفاز، وتمصّ حبات بسكويت بالتين، ثمّ تتركها تذوب على لسانها. وتبدّت لها الوحدة مثل هوّة سحيقة رأت نفسها تغور فيها. وبدأت هذه الوحدة التي التصقت ببشرتها وملابسها، في تغيير ملامحها، وتحويلها إلى عجوز صغيرة. انقضّت عليها مع حلول الظلام حين تعالت ضجّة الناس الذين يعيشون مجتمعين تحت سقف واحد. خفت الضوء، فتناهت إلى سمعها الإشاعات والضحكات والهتافات، بل حتّى تأوّهات السأم.

في غرفة الفندق هذه، الواقعة في شارع بالحي الصيني،

فقدت الشعور بالزمن. كانت تائهة ومنهكة، نسيها العالم بأسره. ورغم البرد القارس، نامت لساعات طويلة، واستيقظت بعينين متورّمتين وصداع في رأسها. ولم تكن تخرج إلا للضرورة القصوى، لمّا يستبدّ الجوع بها. تسير في الشارع كما لو أنّها تمشي في مشهد سينمائي ما كان عليها أن توجد فيه، بل كان حقّها أن تكون مجرّد متفرّجة خفيّة تتابع حركات الناس الذين يأهلونه. أناس لهم جميعاً، فيما يبدو، مكان يقصدونه.

* * *

كان أثر الوحدة عليها مثل مخدّر ليست متأكدّة من أنّها تتوق فعلاً إلى التخلّص منه. كانت تتسكّع في الشارع مذهولة، تشعر بألم في عينيها من شدّة ما تفتحهما. وفي غمرة هذه الوحدة، بدأت ترى الناس، تراهم حقّاً. وصار وجود الآخرين ملموساً، نابضاً بالحياة، أشدّ واقعية من أيّ وقت مضى. كانت تراقب حركات الأزواج الجالسين في المقاهي بأدقّ التفاصيل، وتتابع نظرات الشيوخ المنبوذين المخاتلة، وتتطلّع إلى تغنّج الطالبات المتظاهرات بمراجعة الدروس وهنّ جالسات على مساند المقاعد. وفي الساحات، عند أبواب محطات الميترو، تتعرّف إلى حركات الذين نفد صبرهم، فتنتظر معهم حلول أوقات مواعدهم. وكانت تلتقي في كلّ يوم أناساً يشتركون معها في الجنون، مخابيل ومتشردين يتحدّثون إلى أنفسهم بصوت مسموع.

لقد كانت المدينة حينئذٍ حافلة بالمجانين.

حلّ الشتاء بأيّامه الرتيبة. كان شهر نوفمبر ممطراً وبارداً، واكتست الأرصفة في الخارج بالجليد، فصار الخروج مستحيلاً، وراحت لويز تجتهدُ لتسلية الطفلين. تبتكر ألعاباً، وتردّد أغاني. يبنون منزلاً من الكارتون، لكنّ النهار يبدو طويلاً لا نهاية له. وأصيب آدم بالحمّى، وصار لا يتوقّف عن الأنين. تحمله لويز بين ذراعيها وتهدهده لساعات إلى أن يغلبه النوم. أمّا ميلا التي تضجر من الدوران في الصالون، فيستبدّ بها التوتّر هي أيضاً.

قالت لها: «تعالي إلى هنا». اقتربت ميلا من مربّيتها، فأخرجت لويز من حقيبتها علبة صغيرة بيضاء طالما حلمت بها الطفلة. وبدت لويز في عيني ميلا أجمل امرأة في الكون، أشبه بمضيفة طيران شقراء رشيقة كانت قد أهدتها حلوى خلال رحلة جوّية إلى نيس. ورغم أنّ المربّية تقضي يومها كاملاً في غسل الأواني والهرولة بين البيت والمدرسة، كانت دائمة الحرص على رونق مظهرها. تشدّ شعرها بعناية إلى الخلف، وتضع على جفنيها ثلاث طبقات من الماسكارا الأسود، بحيث تبدو مثل دمية مذهولة. ثمّ هناك اليدان الناعمتان اللتان لا يفارقهما الملمّع، وتفوحان برائحة الزهر دائماً.

وتعتني لويز بأظافرها أحياناً أمام ميلا، فتغمض الصغيرة عينيها وتستنشق رائحة مذيب الملمّع الرخيص الذي تمسح به المربية أظافرها بحركات سريعة من دون أن تلمس بشرتها. وتروح الصبية تحدّق فيها بشغف بينما تحرّك يديها في الهواء وتنفخ على أظافرها.

وإذا كانت ميلا تستسلم لقبلات لويز، فلكي تتنشّق رائحة مسحوق التجميل على خدّيها، وترى عن قرب الحُبيبات البراقة على جفنيها. وهي تستلذّ النظر إليها حين تضع أحمر الشفاه. تمسك لويز مرآتها اللامعة بيد، ثمّ تمطّ شفتيها في تكشيرة غريبة تحاول ميلا تقليدها فيما بعد في الحمام.

إثر ذلك تفتّش في محفظتها الصغيرة، وتتناول يد الصبيّة فتطلي راحتيها بكريمة ورد تستخرجها من كوز صغير، وتقول لها: «له رائحة طيّبة، أليس كذلك؟» ثمّ تمضي الطفلة تنظر إليها مبهورة وهي تضع الملمّع على أظافرها الصغيرة، ملمّع وردي مبتذل يفوح برائحة الأسِتون. وهي رائحة صارت تقترن بالأنوثة في ذهن ميلا.

وتقول لها: «هلا نزعت جوربيك!»، وتروح تطلي أظافر قدميها الممتلئتين بالملمّع. ثمّ تُفرغ لويز محتوى المحفظة على المائدة، فينتشر في الجوّ غبار برتقالي ورائحة مسحوق التجميل، وتتملّك ميلا ضحكة مبتهجة. ها هي لويز تضع على شفتي الطفلة أحمر الشفاه، وعلى جفنيها المسحوق الأزرق، وعلى راحتيها الصغيرتين عجيناً برتقالياً. تحني رأسها، وتجعّد شعرها الناعم الأملس لتصنع منه ما يشبه العُرف.

وبينما كانتا تضحكان بصخب لم تشعرا بعودة بول الذي أغلق

الباب ودخل إلى الصالون، فابتسمت له ميلا وقد فتحت فاها وبسطت ذراعيها.

بادرته قائلة: «انظر يا بابا، انظر ما فعلت لي لويز!». تفرّسها. هو من كان مبتهجاً بالعودة إلى البيت مبكّراً، متلهّفاً للقاء طفليه، ها هو يصاب بالقرف. شعر كما لو أنّ منظراً منفّراً وشنيعاً باغته. رأى ابنته الصغيرة أشبه بمخنّث أو بمغنية كابريه هرمة. لم يصدّق عينيه، واستشاط غضباً. نَقِم على لويز التي استقبلته بهذا المشهد. جعلت ميلا، ملاكَه الصغير، تبدو مضحكة في هذه الصورة الشوهاء، ككلب ألبسته عجوز معتوهة ثياباً وخرجت به للنزهة.

وصرخ بها: «ما هذا؟ ماذا أصابك؟». أمسك بذراع الطفلة ووضعها على كرسيّ في الحمام، وراح يمسح عن وجهها الماكياج وهي تصيح: «آي، إنك تؤلمني». أخذت تبكي، فسال على بشرة وجهها الغض سائل لزج أحمر. وبينما كان بول يمسحه، خُيِّل إليه أنّه إنما يزيدها تشوّهاً ووسخاً، فثارت حفيظته. «حذار يا لويز، لا تكرّري مثل هذا ثانية. هذه الأشياء تغيظني. لا أريد أن تتعلم ابنتي هذه البذاءات. فهي لا تزال صغيرة على التنكّر في صورة... لعلك فهمت قصدي».

وبقيت لويز واقفة في باب الحمام وآدم بين ذراعيها. ورغم الضجّة وصراخ الأب، لم يبكِ. رشق بول بنظرات قاسية حذرة، كما لو أنّه أراد أن يُفهِمه انحيازه إلى معسكر لويز. أمّا المربّية، فمضت تنصت لكلام بول من دون أن تطأطئ رأسها وتعتذر.

تتذكّر لويز ابنتها ستيفاني أحياناً، وتقول في نفسها قد تكون ماتت. كان بوسعها أن تحرمها من الحياة، أن تخنقها قبل أن تفقس من دون أن يعلم أحد بذلك، بل لو كانت قضت عليها حينئذٍ، لكان المجتمع اعترف بفضلها اليوم، ولكانت أبانت عن نفاد بصيرة، وعن حسٍّ وطني صادق.

استيقظت لويز ذات يوم، وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها، فشعرت بألم وثقل في ثدييها، ومنذئذٍ تغلغلت الكآبة بينها وبين العالم، وأحسّت بأنّها ليست على ما يرام. كانت تشتغل لدى م. فرانك، وهو رسّام يعيش مع أمّه في فندق خاص يقع في الدائرة الرابعة عشرة. ورغم أنّ لويز لم تكن تفقه شيئاً في الفن التشكيلي، كانت تقف أمام اللوحات الضخمة التي أكسبت الرسام شهرة كبيرة. كانت تغطّي جدران الممرّ والغرف، تظهر عليها نساء مشوّهات، ذوات أجساد تتلوى من الألم أو تشلُّها النشوة. ولم تكن متأكّدة من أنّهن جميلات، لكنهنّ كنّ يعجبنها.

أصيبت جونيفييف، أمّ فرانك، بكسر في عنق فخذها إثر سقطة أثناء نزولها من القطار. شلّت حركتها على الرصيف،

وفقدت رشدها. ومنذئذٍ أصبحت تعيش في غرفة بالطابق الأرضي مستلقية، وعارية في معظم الأحيان. وكان من الصعوبة بمكان إلباسها، لأنها تتخبّط وتقاوم بشراسة حتّى إنّ لويز صارت تكتفي بتمديدها على غطاء، وتتركها مكشوفة الثديين والفرج. وقد كان منظر هذا الجسد المهمل مفزعاً.

شغّل م. فرانك في بادئ الأمر ممرّضات متخصّصات بثمن باهظ، لكنهنّ كنّ يشتكين من غرابة أطوار العجوز، وكنّ ينهكنها بالأدوية. وقد وجدهنّ ابنها فاترات وفظّات. كان يحلم بخادمة تخدم أمّه وتكون صديقة لها، امرأة حنون تنصت لهذيانها من دون أن ترفع عينيها للسماء، ومن دون أن تتأوّه. من المؤكّد أنّ لويز كانت لا تزال شابّة، لكنّها أثارت إعجابه بقوّتها البدنية. لمّا دخلت إلى الغرفة لأوّل مرّة، حملت الجسد البالغ الثقل بمفردها، ونظفته، كلّ ذلك وهي تتحدّث بلا توقّف. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي لم تصرخ فيها جونيفييف.

كانت لويز تنام مع العجوز، تنظّفها، وتنصت لهذيانها خلال الليل. ذلك أنّ جونيفييف كانت تخشى حلول الظلام مثل الرضّع. وكان الضوء الخافت والظلام والصمت يجعلونها تصرخ من الخوف، كما كانت ترتعب من حلول المساء، بحيث تروح تنادي أمّها التي ماتت قبل أربعين سنة وتدعوها لأن تأتي وتأخذها. ولمّا كانت لويز، التي تنام بجوار سريرها الطبي، تحاول أن تعقّلها، تنهال عليها بالشتائم، وتنعتها بالعاهرة والكلبة واللقيطة، بل تحاول ضربها أحياناً.

ثمّ شرعت لويز تغطّ في النوم مثلما لم تفعل من قبل، ولم

تعد صرخات العجوز تزعجها. وشيئاً فشيئاً لم تعد تستطيع تقليبها أو إجلاسها على مقعدها المتحرّك. أصاب ذراعيها ما يشبه الضمور، وصارت تنتابها آلام رهيبة في الظهر. وذات مساء، بعد أن خيَّم الظلام، وبينما كانت جونيفييف تغمغم بصلوات مفجعة، صعدت لويز إلى ورشة م. فرانك لكي تشرح له الوضع، فاستشاط غضباً على نحو لم تتوقّعه. أغلق الباب بعنف، واقترب منها وهو يرشقها بنظرات حادة حتّى تخيّلت أنّه سيؤذيها، ثم راح يضحك.

«اسمعي يا لويز، لا يعقل أن تفكر امرأة عازبة مثلك، بالكاد تكسب لقمة عيشها، في الإنجاب. وحتى لا أخفيك مشاعري، فأنا أجدك امرأة غير مسؤولة تماماً. تأتين إليّ بعينيك المدوّرتين وابتسامتك البلهاء لتحدّثيني بهذا الكلام، ماذا تنتظرين منّي؟ أن أفتح زجاجة شامبانيا؟». كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بين لوحاته غير المكتملة، وقد شبك يديه خلف ظهره. «أتظنّينها بشرى؟ ألا تملكين ذرة ذكاء؟ اسمعي، أنت محظوظة بعثورك على مشغّل مثلي، يساعدك على تحسين وضعيتك. أعرف من المشغلين من كانوا سيسارعون إلى طردك لو وُضِعوا في هذا الموقف. عهدت لك بأمي، وهي أغلى كائن عندي، والآن أكتشف أنّك مخبولة، وتعدمين الحسّ السليم. لا يهمّني ما تفعلينه بأوقات فراغك، وأخلاقك الفاسدة لا تعنيني، لكن الحياة ليست كلّها أعياد. فيمَ سيفيدك الحمل؟».

* * *

الواقع أنّ م. فرانك لم يكن يهزأ بما تفعله لويز ليالي

السبت. فقد شرع يلحّ عليها شيئاً فشيئاً بأسئلته. ودّ لو يخضخضها ويضربها لكي تعترف وتحكي ما تفعل لمّا تغيب عن نظره، ولا تكون بجوار سرير جونيفييف. كان يتوق لمعرفة السرير الذي استسلمت فوقه لويز للشهوة والغريزة والضحك لكي تحبل بهذا الطفل. لم يكن يكفّ عن سؤالها عن الأب؟ وكيف هو؟ وكيف التقت به؟ وما نواياه؟ لكنّ لويز لم تكن تتزحزح عن هذا الجواب: «لا أحد».

وقرّر م. فرانك أن يأخذ بزمام الأمور. أخبرها بأنّه سيأخذها للطبيب وينتظرها حتى تُجهض، بل وعدها بأن يوقّع لها عقداً بعد الانتهاء من العملية، ويودع لها مبلغاً مالياً في حساب بنكي باسمها، وسيكون من حقّها الاستفادة من عطل مدفوعة.

ولمّا حلّ يوم إجراء العملية، لم تستيقظ لويز، وأخطأت الموعد. وهكذا فرضت عليها ستيفاني نفسها، ومزّقت شبابها، ونبتت كفطر على قطعة خشب رطبة. ولم تعد لويز إلى بيت م. فرانك، ولم ترَ العجوز منذئذٍ.

تشعر أحياناً، من طول ما تلزم شقّة آل ماسي، كما لو أنّها جُنّت. وقد ظهرت على خدّيها ومعصميها، منذ بضعة أيام، بقع حمراء حتّى إنّها تضطرّ إلى تعريض وجهها ويديها للماء البارد لتخفّف ممّا كانت تشعر به من التهاب. وقد ساورها، خلال أيام الشتاء الطويلة هذه، شعور عميق بالوحدة. وحين كان يستبدّ بها الخوف، تغادر الشقّة رغم البرد، وتأخذ الأطفال إلى الحدائق حيث يكنس المطر الأوراق الميّتة، ويلتصق الحصى البارد برُكَب الأطفال.

* * *

على المقاعد، وفي المماشي الخفيّة، تصادف أولئك الذين لفظهم العالم، الهاربين من الشقق الضيّقة والصالونات الحزينة والأرائك التي حفرها الخمول والسأم، فآثروا عليها الارتعاش في الهواء الطلق وقد قوّسوا ظهورهم، وشبكوا أيديهم. وعند حلول الرابعة بعد الزوال، تبدو أيام الفراغ بلا نهاية. فهذه هي الساعة التي ينتبه فيها المرء إلى الوقت الذي بدّد، ويتوجّس من الليل القادم، ويشعر بالخزي من أنّه لم يعد يصلح لشيء.

يأهل الحدائق في أمسيات الشتاء المتشرّدون والمتسكّعون والعاطلون والشيوخ والمرضى والهائمون على وجوههم والمعوزون. أولئك الذين لا يعملون، لا ينتجون شيئاً ولا يكسبون مالاً. وفي الربيع، يعود العشاق إلى الحدائق بالطبع، ويعثر فيها المحبّون على أوكار تحجبهم عن الأنظار تحت أشجار الزيزفون، وفي الأركان المزهرة. ويروح السواح يلتقطون الصور للنصب والتماثيل. أما في الشتاء، فالأمر مختلف.

يرافق المربّيات حول المزلقة المتجمّدة جيشٌ من الأطفال الملفوفين في معاطفهم السميكة التي تُثقل حركتهم، وتجعلهم حين يجرون أشبه بدمى يابانية منتفخة. تسيل أنوفهم بالمخاط، وأصابعهم مزرقّة من البرد. وهم يعجبون من الدخان الأبيض المنبعث من أفواههم. أمّا الرضّع، المشدودون إلى عرباتهم، فيستغرقون في تأمّل من يكبرونهم سنّاً بكآبة ونفاد الصبر. لعلّهم متلهّفون للاستدفاء بتسلّق الأعمدة الخشبية، ومتحرّقون للإفلات من قبضة مربّيات تُطْبِقن عليهم أيادٍ رفيقة أو عنيفة، لطيفة أو خشنة.

وهناك الأمّهات أيضاً. أمّهات بنظرات ساهمة، ما زالت الولادة الحديثة تشدّهنّ إلى الهامش. يشعرن وهنّ جالسات على مقاعد هذه الحديقة بثقل بطونهن وترهّلها. يحملن أجساداً مؤلمة لم تجفّ إفرازاتها بعد، ولا تزال تفوح برائحة اللبن الحامض والدم. ثمّ هناك الأمّهات الباسمات المتألّقات، وإن كنّ من القلّة بحيث يلفِتن أنظار جميع الأطفال. أمّهات لم يودّعن أطفالهنّ هذا الصباح، ولم يعهدن بهم إلى نساء أخريات، اغتنمن يوم العطلة

الاستثنائية هذا وجئنّ للاستمتاع بالحديقة في نهار شتوي لا يختلف عن سائر الأيام.

وهناك الرجال أيضاً، لكنّ النساء يَنصِبن بينهم وبين الأطفال الصغار جداراً منيعاً، خطّاً دفاعياً لا يُخترق. يحذرنهم، ويحترسن بخاصّة من أولئك الذين يتطفّلون على عالم النساء. يطردن من يبتسمون للأطفال، ويُنعمون النظر في خدودهم الممتلئة، وسيقانهم الصغيرة. وتقول الجدّات مستنكرات: «ما أكثر مغتصبي الأطفال هذه الأيام! لم يكن لهم وجود في زماننا».

* * *

لم تكن لويز تحوّل بصرها عن ميلا التي كانت تجري بين المزلقة والأرجوحة، ولا تتوقّف عن الحركة حتّى لا يغلبها البرد. تبلّلت قفازتاها، وراحت تمسحهما وتفركهما بمعطفها الوردي. أما آدم، فنام في عربته. لفّته لويز في غطاء ومضت تداعب بلطف بشرة رقبته، بين القميص والقبعة الصوفية. وبينما أعماها ألق أشعة الشمس الفضية، جلست بجوارها امرأة شابّة وقد باعدت ما بين ساقيها، وقالت وهي تمدّ لها علبة صغيرة رُصّت فيها قطع حلوى بالعسل:

«تفضّلي!».

حدّقت فيها لويز. شابّة لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، تبتسم على نحو مبتذل. شعرها الأسود الطويل قذر وغير ممشّط، لكنّها جذابة وعلى حظ من الجمال كذلك، ذات صدر

مكتنز، وبطن بارز قليلاً وفخذين ثخينتين. كانت تمضغ الحلوى بفم مفتوح وتمصّ أصابعها المكسوة بالعسل وتتمطّق.

أشارت لويز بيدها رافضة العرض: «كلا، شكراً». فقالت المرأة: «في بلدي، لا يمكن أن نأكل أمام الغرباء من دون أن ندعوهم لمقاسمتنا. لم أرَ الناس تأكل بمفردها إلا هنا». واقترب منها طفل في حوالي الرابعة من عمره، فلقّمته قطعة حلوى، فمضى يضحك.

وقالت له: «استمتع بهذه الحلوى، لكن لا تخبر أمّك، ليبقَ السرّ بيننا، موافق؟».

يسمّى الطفل ألفونس، وميلا تحبّ اللعب معه. تأتي لويز إلى الحديقة كلّ يوم، وكلّ يوم ترفض الحلويات الدّهنية التي تعرضها عليها وفاء، وتمنع ميلا أيضاً من أكلها، لكن وفاء لا تغضب. إنّها امرأة مهذارة، تجلس على المقعد وتلصق ردفيها بلويز، وتروح تحكي لها قصة حياتها. وأحبّ موضوع إلى نفسها هم الرجال.

ووفاء أشبه بحيوان ضارٍ، غير مهذّبة، لكنّها شاطرة. وهي لا تبدو منزعجة من وضعية إقامتها غير القانونية. دخلت فرنسا بفضل عجوز كانت تدلّكه في فندق مشبوه بالدار البيضاء. تعلّق بيديها الناعمتين، ثمّ بفمها وردفيها. أهدته جسدها كاملاً مستسلمة لغريزتها، ومذعنة لنصائح أمّها. وهكذا أتى بها إلى شقته الحقيرة في باريس حيث كان يعيش من مرتّب معاشه. «لكنّه طردني مكرهاً من الشقة بإيعاز من أبنائه الذين خافوا من أن أحبل منه».

كانت وفاء تتحدّث أمام لويز الصامتة كما لو أنّها تبوح لقسّ

أو تعترف للشرطة. بعد مغادرة بيت العجوز، استقبلتها فتاة وسجّلتها على مواقع إلكترونية خاصة بالتعرُّف إلى الفتيات المسلمات والمهاجرات السِّرِّيات. وذات مساء، ضرب لها رجل موعداً في أحد مطاعم ماكدونالدز الموجودة في الضاحية. أُعجب بجمالها، فراودها على نفسها، بل حاول اغتصابها، لكنّها نجحت في صدّه. ثمّ تحدّثا عن الصفقة، وقبِل يوسف أن يتزوّجها مقابل عشرين ألف يورو. قال لها: «هذا مبلغ زهيد للحصول على وثائق الإقامة بفرنسا».

ثمّ أسعفها الحظّ في العثور على هذا العمل لدى أسرة فرنسية أميركية. يعاملها الزوج والزوجة معاملة طيّبة، لكن مطالبهما لا تكفّ. استأجرا لها غرفة ضيّقة على بعد مئة متر من بيتهما. «يؤذّيان عنّي الإيجار، لكنّني لا أستطيع أن أرفض لهما طلباً بالمقابل». وقالت وهي تحدّق في ألفونس: «أنا مولعة بهذا الصبي». ثمّ خيّم الصمت. وهبّت على الحديقة ريح باردة أنذرتهما بحلول وقت الانصراف. «انظري إلى هذا الطفل المسكين، يتحرّك بصعوبة من كثرة ما ألبسته أمّه. إن أصابته نزلة برد، ستقتلني».

تخشى وفاء أحياناً من أن تشيخ في هذه الحدائق، وتحسّ بركبتيها تتكسّران على هذه المقاعد القديمة المتجمّدة، وتصير عاجزة عن حمل الأطفال. سيكبر ألفونس، ولن تطأ قدمه ثانية أرض حديقة في يوم شتوي كهذا. سيحصل على عطلة، وسيذهب إلى حيث تسطع الشمس، بل قد ينام يوماً في إحدى غرف الغراند أوتيل حيث كانت تدلّك الرجال. هو من ربّته بيديها، قد تخدمه

إحدى أخواتها أو أحد أبناء عمّها على الشرفة المزلجة بالأصفر والأزرق.

«أترين، كلّ شيء يتغيّر وينقلب. طفولته وشيخوختي، شبابي ورجولته. فالقدر غدّار كأفعى تسعى دائماً لتدفعنا إلى الجانب الخطر من المنحدر».

بدأ المطر يهطل. تنبغي العودة إلى البيت بسرعة.

لم يشعر بول ومريم بمرور الشتاء من شدّة انشغالهما. وصار اللقاء بينهما نهاراً في الأسابيع الأخيرة نادراً. حين يعود أحدهما متأخّراً ليلاً ويأوي إلى السرير، يجدُ الآخر غاطاً في النوم. تلتصق أرجلهما تحت الفراش، ويقبّل أحدهما الآخر على رقبته، فيزمجر كوحش أُزعج خلال نومه. وفي النهار، تدور بينهما المكالمات الهاتفية، ويتبادلان الرسائل النصية. وقد تكتب له مريم عبارات غرامية على قصاصات تلصقها على المرآة أو تتركها في الحمام. أما بول فيبعث لها من الاستديو في عزّ الليل بمقاطع فيديو سجلها خلال تداريبه.

وصارت الحياة سلسلة من الأعمال والالتزامات والمواعيد التي لا ينبغي التأخر عنها. وبدأ بول ومريم يشعران بالإنهاك. لكنّهما يستلذّان ترديد أنّ هذا الإنهاك علامة تبشّر بالنجاح المرتقب. وصارت حياتهما مشغولة بالكامل، بالكاد يجدان الوقت للنوم. أمّا تأمل هذه الحياة فلا مكان له. يجريان من مكان إلى آخر، يغيّران أحذيتهما في سيارات الأجرة، ويشربان الكؤوس مع أناس مهمّين بالنسبة إلى مسيرتهما المهنية. وصار كلّ منهما

رئيساً لشركة ناجحة، يملكان أهدافاً واضحة، ولهما مداخيل ومصاريف.

تكتب مريم قوائم على مناشف ورقية أو قصاصات أو على الصفحة الأخيرة من أحد الكتب، تخفيها وتنسى المكان الذي وضعتها فيه، فتقضي وقتاً طويلاً في البحث عنها. تخشى من أن تكون رمت بها في القمامة، كما لو أنّ ذلك يهدد باختلال تسلسل المهام التي خطّطت لها. وقد حفظت نماذج قديمة من تلك القوائم، تقرأها بكثير من الحنين، رغم أنّها لا تذكر أحياناً دلالة ما عليها من ملاحظات غامضة:

- صيدلية.
- سرد قصة النيل لميلا.
- حجز لليونان.
- الاتصال بـ«م».
- مراجعة كل ملاحظاتي.
- العودة إلى هذا المتجر. شراء فستان؟
- إعادة قراءة موباسان.
- إعداد مفاجأة له.

يشعر بول بالسعادة، فهذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها حياته في مستوى تطلّعه وحيويّته المتّقدة، وشغفه بالحياة. يستطيع أخيراً أن ينطلق. فقد عرفت مسيرته المهنية منعطفاً حقيقياً في غضون بضعة شهور، وصار بإمكانه أن يفعل ما يروقه. لم يعد يقضي نهاراته في خدمة الآخرين، في الطاعة والصمت والعمل مع

منتجين هستيريين أو مغنّين صبيانيين. سينسى الأيام التي قضاها في انتظار فرق موسيقية تتأخر ستّ ساعات عن الموعد من دون أن تكلّف نفسها إشعاره بذلك. وسينسى حصص التسجيل مع مغنين شاخوا أو عازفين في حاجة إلى بضعة ليترات من الكحول لكي ينتجوا نغمة واحدة. وعاد يقضي لياليه في الاستديو متعطّشاً للموسيقى والأفكار الجديدة والضحك المتواصل. وهو لا يترك شيئاً للصدفة، يقضي ساعات طوالاً في تسوية صوت هذه الآلة أو تلك. ولمّا تعبّر له زوجته عن قلقها من غيابهما المتواصل عن البيت، يجيبها «لا تقلقي، فلويز موجودة!».

لما حبلت مريم، كاد يطير فرحاً، لكنه كان يعِدُ أصدقاءه بأنّ حياته لن تتغيّر. وقالت مريم في نفسها إنّه محق. وراحت تنظر إلى زوجها الرياضي الوسيم المتحرّر بإعجاب متزايد. وعدها بأن تظلّ حياتهما متألّقة، وأن تستمرّ مليئة بالمفاجآت. «سنسافر، وسنحمل الصغير بين أذرعنا. ستصيرين محامية كبيرة، وسأنتج أنا فنّانين مشهورين، ولن يتغيّر شيء من حياتنا». تظاهرا بأنّ لا شيء تغيّر، وواصلا المسيرة.

وخلال الشهور التي تلت ميلاد ميلا، تحوّلت الحياة إلى كوميديا سخيفة. أخذت مريم تخفي الهالات السوداء التي تطوّق عينيها، وتجتهد في إضمار كآبتها. رفضت أن تعترف بأنّ الرغبة في النوم لا تفارقها. في كلّ مرّة كان بول يسألها: «فيمَ تفكرين؟» تُغالب البكاء. كانا يدعوان بعض الأصدقاء إلى بيتهما، وكانت مريم تتمالك نفسها من أن تطردهم وتقلب المائدة في وجوههم، وتغلق باب الغرفة على نفسها بالمفتاح. كان الأصدقاء يضحكون

ويشربون كؤوسهم التي يسارع بول إلى ملئها من جديد، و يتناقشون، فتخشى مريم من أن يوقظوا رضيعتها. وكانت تهمّ بالصراخ من التعب.

وعند ميلاد آدم، ازداد الوضع سوءاً. في الليلة التي عادوا فيها من مشفى الولادة، نامت في الغرفة، والمهد الشفاف بجوارها. أما بول، فجفاه النوم. تهيّأ له أنّ الشقة تفوح برائحة غريبة، نفس الرائحة التي تنبعث من متاجر الحيوانات أو تنتشر على الأرصفة التي يأخذ إليها ميلا أحياناً خلال عطل نهاية الأسبوع. رائحة إفرازاتٍ في مكان مغلق، رائحة بَوْلٍ جفّ على قماش. فتح النافذة، وتنبّه فيما بعد إلى أنّ ميلا رمت لُعَباً في المرحاض فخنقته، وتسبّبت بذلك في هذا النتن الذي يملأ الشقّة.

* * *

أحسّ بول في هذه الفترة بأنّه علق في الفخ، وقيّد نفسه بكثير من الالتزامات، فركِبَهُ الإحباط. هو من كان كلّ من يعرفه معجباً بانشراحه، وبضحكاته الصاخبة وثقته في المستقبل. هو، ذلك الطويل الأشقر الذي يثير نظر الفتيات لمّا يمرّ بجانبهنّ، فتلتفتن إلى الخلف لاستراق النظر إليه من دون أن يعبأ بهنّ، لم تعد تراوده الأفكار المجنونة، ولم يعد يقترح قضاء عطلة نهاية الأسبوع في الجبل أو السفر بالسيارة لأكل المحار على الشاطئ. لقد خفّ حماسه. وفي الأشهر التي تلت ميلاد آدم، بدأ يتلافى العودة إلى البيت. صار يختلق المواعيد، ويشرب زجاجات الجعة خلسة بمفرده، في حي بعيد عن بيته. وكان أصدقاؤه قد صاروا

آباء أيضاً، ومعظمهم ترك باريس إلى ضاحيتها أو إلى أقاليم أخرى، أو حتّى إلى أحد البلدان الدافئة جنوب أوروبا. وهكذا أصبح صبيانياً ولا مسؤولاً وسخيفاً. وقد صارت له خلال مرحلة الهروب هذه أسرار ورغبات. على أنّه لم يكن متسامحاً مع نفسه. كان واعياً بانحراف سلوكه وتفاهته. لكن أسمى ما كان يتوق إليه هو ألا يعود إلى البيت، وأن يعانق الحرية، ويستمتع قليلاً. هو الذي انتبه متأخّراً إلى أنّه لم يستمتع بحياته كما ينبغي. وبدا له أنّ ثوب الأبوّة أوسع من مقاسه، وأدعى إلى الكآبة.

لكنّ الواقع لا يرتفع، وهو لا يستطيع أن ينكره الآن. فالطفلان قد ولدا، وهما محبوبان ومعزّزان، ولم يضع وجودهما موضع ريبة أبداً. لكن الشكّ كان قد تسرب إلى كلّ شيء. كان الطفلان ورائحتهما وحركاتهما، وحبّهما له، كل ذلك يثير انفعاله إلى حدٍّ لا يستطيع وصفه. يودّ أحياناً لو يصير طفلاً مثلهما، ويكون في مستواهما، ويذوب في طفولتهما. ثمّة شيء ما فُقِد، ولم يكن هذا الشيء هو الشباب أو اللامبالاة فقط. لم يعد وجوده بلا جدوى، ذلك أن ثمّة من هم في حاجة إليه، ويتحتّم عليه أن يتكيّف مع هذا الوضع. بإنجاب الطفلين، اكتسب مبادئ ويقينيات، وهو ما كان أقسم على ألا يكتسبه أبداً. وخفّ بذلك كرمه، وتراجعت نزواته، وضاق عالمه.

* * *

لويز موجودة في البيت الآن، وبول عاد يضرب مواعيد لزوجته. كتب لها رسالة نصية بعد ظهر يوم من الأيام: «ميدان

بوتي بير». لم تجبه، فوجد صمتها رائعاً، أشبه بصمت العشيقات. وبلغ الميدان قبل الموعد مضطرباً وقلبه يرتعش. «ستأتي بالطبع، ستأتي لا محالة». وجاءت بالفعل. تنزّها على الرصيف مثلما كانا يفعلان من قبل.

هو يدرك مقدار حاجتهما إلى لويز، لكنّه لم يعد يطيقها. صارت تُضايقه وتُحنِقه بسحنتها البغيضة وهيئتها التي تشبه الدمية. وقال يوماً لمريم معترفاً: «إنّها تبالغ في الحذق واللباقة حتى لتُصيبني أحياناً بالقرف». وهو إذ يمتعض من هيئتها الضئيلة، وطريقة تحليلها لكلّ حركة من حركات الطفلين، فإنه يبغض نظرياتها المبهمة في التربية، وأساليبها العتيقة، ويهزأ بالصور التي أخذت تبعثها لهما يومياً على المحمول، يظهر فيها الطفلان باسمين وهما يرفعان صحنيهما الفارغين، مع تعليق يقول: «أكلت صحني كاملاً».

منذ واقعة الماكياج، صار لا يكلّمها إلا للضرورة، بل قرّ قراره ذلك المساء على التخلّص منها. اتّصل بمريم ليفاتحها في الموضوع، لكنّها كانت منشغلة في المكتب، ولا تملك الوقت للخوض في هذا الحديث. انتظر عودتها إذاً، وما إن فتحت الباب في حوالي الحادية عشرة ليلاً، حتّى حكى لها الحادث، ووصف لها النظرة التي حدجته بها، وصمتها الفاتر، وهيئتها المتغطرسة.

حاولت مريم أن تهدئ من روعه. استهونت الأمر، وعابت عليه فظاظته وتصرّفه الجارح. أحسّ بأنّهما تتحدان ضدّه دائماً، وتعاملانه، حين يتعلّق الأمر بالطفلين، بتعالٍ مقيت. تستغلان غريزة الأمومة الجامعة بينهما لتتواطآ عليه، وتعاملانه كما لو كان

طفلاً. وقد سخرت منهما أمّه سيلفي حين قالت: «إنّكما تعاملان مربّيتكما بغطرسة. ألا تبالغان قليلاً؟»، وهو ما أزعج بول. فقد ربّاه والداه على الاستهانة بالمال والسلطة، واحترام من هم أدنى منه مكانة. وقد اشتغل دائماً من دون شكليات، مع أناس لم يكن يشعر بأي فرق بينه وبينهم. كما أنه يخاطب رئيسه دائماً بألفة. وهو لا يُصدر الأوامر أبداً. لكن لويز جعلت منه رئيساً. وكثيراً ما باغت نَفسَه يقدّم لزوجته نصائح بغيضة. يقول لها وقد بسط ذراعه، ومضت يده تنتقل بين معصمه وكتفه: «لا تبالغي في التنازل، وإلا فإن مطالبها لن تتوقّف أبداً».

تُلاعب مريم ابنها في الحمّام. تضعه بين فخذيها، وتضمّه إليها وتلاطفه إلى أن يشرع في المقاومة والبكاء، فلا تتمالك نفسها من أن تكسو جسده الممتلئ بالقُبَل، جسد رائع شبيه بجسد ملاك صغير. تنظر إليه فتستسلم لدفق لاذع من عاطفة الأمومة. وتقول في نفسها سيأتي يوم سيُحظر عليها فيه أن تتعرّى أمامه على هذا النحو. ثمّ بينما تدركها الشيخوخة بأسرع ممّا تتصوّر، سيغدو هذا الطفل الضاحك المدلّل رجلاً.

وبينما كانت تجرّده من ملابسه، لاحظت على ذراعه وظهره، بمحاذاة الكتف، أمارتين غريبتين. ندبان أحمران على وشك أن يطمسا، لكن حين أنعمت النظر فيهما، تبيّنت ما يشبه آثار أسنان. طبعت على الندبين قُبلاً ناعمة، وحملت الطفل وضمّته إليها، ثمّ طلبت منه المعذرة محاولة مواساته من هذا الحزن الناجم عن طول غيابها.

ما كادت المربية تدخل إلى الشقّة في صباح اليوم الموالي، حتّى فاتحتها مريم في موضوع الندبين. مدت لها ذراع آدم العاري

من دون أن تمهلها حتّى تتخلّص من معطفها. على أن المربية لم تندهش. قطبت وهي تعلّق معطفها، ثمّ سألت:

«هل أخذ بول ميلا إلى المدرسة؟

- نعم. خرجا من توّهما. أليست هذه آثار عضة يا لويز؟

- بلى. لقد وضعتُ عليها شيئاً من المرهم لكي تلتئم. عضّته ميلا.

- أأنت متأكدّة؟ أكُنتِ هنا؟ أرأيتِها تعضّه؟

- كنت هنا بالطبع. كانا يلعبان في الصالون بينما كنت أهيّئ العشاء، وفجأة سمعت المسكين يصرخ وينتحب. لم أفهم سبب صراخه في البداية، ولم أكتشف العضة حينها لأنّ ميلا عضّته فوق الملابس».

فكرّرت مريم وهي تقبّل جمجمة الصبي المَرداء:

«لا أفهم. سألتُها مراراً إن كانت هي من عضّته، ووعدتها بألا أعاقبها، لكنّها أقسمت على أنّها لا تعرف مصدر تلك العضّة».

تنهّدت لويز وطأطأت رأسها، ثم قالت وقد بدا عليها التردد: «وعدتُها بألا أفشي هذا السر، وفكرة عدم الوفاء بوعد قدّمته لطفل تضايقني كثيراً». نزعت صدريّتها السوداء، وفكّت أزرار فُستانها، وكشفت عن كتفها. أحنت عليها مريم، ولم تتمالك نفسها من إطلاق صرخة تعجب وامتعاض. حدّقت في الأثر البنيّ المُنطبع على كتف لويز. كان الندب قديماً، لكن آثار الأسنان الصغيرة المنغرزة في اللحم ما زالت واضحة.

«ميلا من فعلت هذا؟

- اسمعي، وعدتُ ميلا بألا أخبر أحداً. ألتمس منك عدم مفاتحتها في الموضوع. أظنّ أنّ ذلك سيقطع أواصر الثقة بيننا، وسيزيد الطفلة اضطراباً. أليس كذلك؟

- حسناً.

- لعلّها الغيرة من أخيها، وهذا شيء طبيعي. اتركي الأمر لي، وسترين، سأعيد الأمور إلى نصابها.

- نعم. ربّما. ولكنّه شيء غريب حقّاً.

- لا تحاولي فهم كلّ شيء. الأطفال مثل الراشدين، لا يستطيع المرء أن يفهم من أمرهم شيئاً».

لشدّ ما اغتمّت لويز لمّا أخبرتها مريم بأنّهم سيسافرون لأسبوع إلى الجبل عند والدَي بول. لمّا تتذكّر مريم منظرها، تنتابها القشعريرة. لمست في نظرتها الحزينة سخطاً ظاهراً. في ذلك المساء، انصرفت من دون أن تودّع الطفلين، وتسللت من الشقة من دون أن يتفطّن لخروجها أحد. قالت ميلا وآدم: «ماما، لقد اختفت لويز».

ولمّا حان موعد السفر بعدَ أيّام، جاءت سيلفي في إثرهم، وهي مفاجأة لم تكن لويز تنتظرها. دخلت الجدّة مبتهجةً إلى الشقّة وهي تصيح. ألقت حقيبتها على الأرض، وارتمت على السرير إلى جانب الأطفال، ووعدتهم بقضاء أسبوع بهيج، حافل بالألعاب والأطباق اللذيذة. ومضت مريم تضحك من مزاح حماتها الطفولي، وحين التفتت، رمقت لويز واقفة في المطبخ تحدّق فيهم. كان شحوبها ملحوظاً، والهالتان المحيطتان بعينيها أشدّ سواداً. وبدت كما لو أنّها تغمغم بشيء. تقدّمت منها مريم، لكنّ لويز قرفصت لتغلق إحدى الحقائب. وقد قالت مريم في نفسها لاحقاً لعلّها أخطأت في حقّها.

حاولت مريم أن تُقنع نفسها بأنّها لم تخطئ، وأنّه لا داعي لأن تلوم نفسها بما أنّها لم تسئ إليها. ومع ذلك ساورها شعور، لم تفهم مبعثه، بأنّها نزعت الطفلين من لويز، وعاقبتها بحرمانها منهما.

قد يكون سبب استياء لويز هو عدم إخبارها بالسفر إلا في آخر لحظة، ممّا فوّت عليها التخطيط لعطلتها بتأنٍّ. أو لعلّها انزعجت من غياب الطفلين لفترة طويلة سيقضيانها مع سيلفي التي تناصبها العداء. فقد لاحظت مريم أنّ لويز تستشيط غضباً كلما شكتها حماتها، وتروح تناصرها بحماس زائد، متّهمة سيلفي بالجنون والهستيريا، محذّرة من تأثيرها السلبي على الطفلين. وتشرع في تحريض مريم على عدم الإذعان لها، وإبعاد الطفلين المسكينين عنها. وبمقدار ما كانت مريم تشعر بمساندة الخادمة، كان يخامرها شيء من الضيق.

* * *

بينما كان بول يهمّ بالانطلاق بالسيارة، نزع ساعته من اليد اليسرى، وقال لمريم: «هل يمكن أن تحتفظي بها في حقيبتك من فضلك؟».

كان قد اقتنى هذه الساعة قبل شهرين بفضل العقد الذي وقّعه مع مغنيه الشهير. إنّها ساعة مستعملة من نوع رولكس تدبّرها له أحد الأصدقاء بثمن مناسب جدّاً. وقد تردّد كثيراً قبل شرائها. كان معجباً بها، ومتلهّفاً للحصول عليها، لكنّه كان متحرّجاً من ارتداء الأشياء المبهرجة، ومترفّعاً عن هذه النزوات التافهة. بدت

له حين ارتداها لأوّل مرّة ضخمة وثقيلة، لكنّها رائعة. ولم يكن يكفّ عن سحب كمّ سترته لإخفائها. لكنّه ما لبث أن اعتاد على هذا الثقل في معصمه الأيسر. وقال في نفسه إنّ هذه الساعة الفاخرة هي الحِلْيَة الوحيدة التي اقتنى في حياته، وهي علاوة على ذلك غير ظاهرة. لكن، أليس من حقه أن يستمتع؟ ثمّ إنّه لم يسرقها. سألته مريم التي كانت تعرف مقدار حرصه عليها:

«لماذا تنزع ساعتك؟ هل تعطّلت؟

- كلا، هي تعمل على أحسن ما يرام. لكنّك تعرفين أمّي. لن تسكت إن رأتها، وأنا لا أريد أن أقضي الأمسية في التأنيب والعتاب».

* * *

وصلوا أوّل الليل إلى منزل الجدين، وهو منزل بارد غير مكتمل البناء. سقف المطبخ آيل إلى السقوط، والخيوط الكهربائية المتدليّة في الحمام عارية. ولم تكن مريم تحبّ هذا المكان بسبب خوفها على طفليها، لذلك كانت تتعقّبهما في كلّ أرجاء البيت، والفزع بادٍ في عينيها، ويداها متأهبتان لالتقاطهما إن أوشكا على السقوط. لم تكن تسهو عنهما، وتوقفهما عن اللعب بين الفينة والأخرى. «تعالي يا ميلا لتلبسي قميصاً آخر»، «ألا ترى أنّ آدم يجد صعوبة في التنفّس؟».

واستيقظت ذات صباح مرتعشة، ومضت تنفخ على يدي آدم المتجمّدتين، وساورها القلق من شحوب ميلا فأجبرتها على ارتداء قبّعتها حتّى داخل البيت. أمّا سيلفي، ففضّلت لزوم

الصمت. ودّت لو تعيد للطفلين الخشونة والاندفاع المحرومين منهما، وتحرّرهما من كلّ القواعد والقيود. لن تغمرهما بالهدايا التافهة كما يفعل والداهما للتعويض عن غيابهما. وهي لا تنتقي ألفاظها حين تتكلم، فتجرّ عليها في كلّ لحظة انتقادات الأبوين.

ولإغاظة كنّتها، كانت تنعتهما بـ«الفرخان الساقطان من العشّ»، وتظهر الشفقة عليهما لأنّهما نشآ في المدينة، ويتحمّلان فظاظة سكانها. وهي تتمنّى لو توسّع أفق هاذين الطفلين اللذين يهيّآن ليكونا صالحين، خانعين وسلطويين في الآن ذاته. ليكونا جبانين.

* * *

تبذُل سيلفي قصارى جهدها لكي تتمالك نفسها، ولا تخوض في موضوع تربية الطفلين. ذلك أنّ خصومة ضارية نشبت بينها وبين كنّتها قبل بضعة أشهر. واحدة من تلك الخصومات التي لا يُنسيها مرور الزمن، وتظلّ كلماتها تتردّد بداخل كلّ منهما كلّما التقتا. في ذلك اليوم شربوا جميعاً، بل أفرطوا في الشرب. جاشت عواطف مريم، وتوسّمت في الحماة أن تنصت لهمومها وتُواسيها. شكت لها غيابها الطويل عن الطفلين، وأنّها لا تجد من يساعدها في هذه الحياة المُتهافتة. غير أنّ سيلفي لم تواسِها، ولم تربت على كتفها، بل هاجمتها. كانت فيما يبدو قد شحذت أسلحتها، ولا تنتظر غير المناسبة لاستعمالها. لم تتورّع عن مؤاخذتها بقضاء معظم وقتها في العمل مع أنها اشتغلت طوال طفولة بول، وكانت شديدة التباهي باستقلالها. كما نعتتها

بالاستهتار والأنانية، وعدّدت على رؤوس أصابعها عدد الأسفار المهنيّة التي قامت بها مريم لمّا كان آدم مريضاً، وبول مستغرقاً في تسجيل أحد الألبومات. وقالت لها إنّها هي المسؤولة عن سلوك الطفلين الذي لا يطاق، وعن مشاكستهما وتقلّبهما. تتحمّل هذه المسؤولية هي ولويز، تلك المربّية التافهة التي تعتمد عليها في تنشئة الطفلين. أجهشت مريم بالبكاء. وبينما مضت سيلفي تلوّح بذراعيها وهي تردّد: «انظروا إليها، ها هي تبكي! لا تقبل سماع الحقيقة. حالها يدعو للشفقة»، لزم بول الصمت مبهوتاً.

وهكذا صارت مريم تتذكر هذه الواقعة المؤلمة كلّما التقت بسيلفي. شعرت بنفسها في تلك الليلة كما لو أنها طُرِحت أرضاً وحوصرت، ثمّ انهالت عليها الطعنات حتى بُقِرت بطنها، وبقيت تنزف على مرأى من زوجها. لم تستطع دفع اتّهامات كانت تعلم صحّة بعضها، لكنّها كانت تعتبر أنّ ذلك هو حظّها من الحياة، وحظّ كثير من النساء مثيلاتها. لم تجد في سيلفي رحمة ولا حناناً، ولم تلقَ منها نصيحة أُمٍّ لأُمّ ولا امرأة لامرأة مثلها.

* * *

خلال وجبة الفطور، لم تحوّل مريم بصرها عن هاتفها. كانت تحاول بيأس أنّ تطّلع على بريدها الإلكتروني، لكنّ الشبكة شديدة البطء، وهو ما أثار حفيظتها حتّى أنّها أوشكت على أن تضرب بهاتفها عرض الحائط. وفي غمرة ذلك الغضب، هدّدت بول بالعودة إلى باريس. تجهّمت سيلفي وقد بدا عليها نفاد الصبر. كانت تحلم لابنها بامرأة مختلفة، أهدأ وأرشق وأروق

مزاجاً. امرأة تحبّ الطبيعة والتنزّه في الجبل ولا تتبرّم من عدم وجود شروط الرفاهية في هذا المنزل الرائع.

كثيراً ما كانت سيلفي تستغرق في هذرها، تحكي الحكايات نفسها عن شبابها والتزاماتها السابقة ورفاقها الثوريين. ومع تقدمها في السن بدأ هذا النزوع إلى الثرثرة يخفّ. أدركت أنّ الجميع يهزأ بنظرياتها الألمعية حول هذا العالم المليء بالخونة، والحاشد بالمعتوهين الذين يقتاتون من الشاشات ولحم المجازر. أمّا هي، فلم تكن تحلم، حين كانت في سنّهم، إلا بالثورة. ويعلّق زوجها دومينيك الذي لا يطيق رؤيتها حزينة: «لكنّنا كنّا مع ذلك على قدر من السذاجة». هي تعلم أنّ زوجها لا يفهم شيئاً من المُثل التي تحلم بها، وأن تدخّله مثير للسخرية. كان يصغي إليها بلطف وهي تتحدّث عن خيباتها وهمومها، وتتفجّع على المآل الذي آل إليه ابنها. «هل تذكر كيف كان ولداً حرّاً؟»، صار رجلاً يعيش تحت نير زوجته، مستسلماً لجشعها المادي وغرورها. لطالما آمنت سيلفي بثورة يقودها الجنسان، تؤسّس لعالم مختلف عن العالم الذي يكبر فيه حفيداها. عالم يجد فيه الإنسان الوقت لكي يحيا. فيقول لها دومينيك: «أنت ساذجة يا حبيبتي. النساء رأسماليات مثل الآخرين».

تذرع مريم المطبخ جيئة وذهاباً، وعينها لا تفارق شاشة هاتفها. ويقترح دومينيك، لكي يهدّئ من روعها، أن يخرجوا للنزهة. تهدأ مريم، وتلفّ طفليها في الأقمصة والأوشحة والقفازات. وما إن خرجا، ووضعا أرجلهما على الثلج، حتّى راحا يجريان منبهرين. أحضرت لهما سيلفي مزلجتين قديمتين،

احتفظت بهما منذ طفولة بول وأخيه. وأجهدت مريم نفسها لكي لا تقلق، ومضت تنظر إلى الطفلين ينزلان منحدراً وقد انقطعت أنفاسها.

قالت في نفسها: «ستتكسّر عظامهما»، وعندئذٍ ستموت من الحسرة والندم. كانت تكرّر لنفسها: «لو كانت معي لويز، لفهمتني».

أمّا بول فمضى يشجّع ميلا التي كانت تلوّح له بيديها وتقول: «انظر يا بابا، انظر كيف أتزحلق بالمزلجة!». وتناولوا وجبة الغذاء في نزل بديع، كانت تطقطق داخل مدفأته نار هادئة. انتحوا في مكانٍ قُرب نافذة كانت تتسرّب منها أشعة شمس ساطعة، وتسقط على خدود الطفلين المتورّدة. وانطلق لسان ميلا، فراح الكبار يضحكون من كلامها. أما آدم فمضى يأكل بنهم شديد.

رافق بول ومريم ذلك المساء الطفلين المنهكين إلى غرفتهما. كانا هادئين ومبتهجين بما عاشاه واكتشفاه ذلك اليوم. ومكث الأبوان معهما، بول جالس على الأرض، ومريم بجانب سرير ابنتها. سوّت غطاءها بلطف، ومسحت على شعرها. ولأوّل مرّة منذ مدّة طويلة، رتّل الوالدان أغنية أطفال حفظاها عن ظهر قلب عند ميلاد ميلا، واعتادا على إنشادها معاً لمّا كانت رضيعة. ورغم أنّ جفون الطفلين أغمضت، واصل الأبوان الإنشاد ليرافقا أحلامهما.

* * *

لم يجرؤ بول على الاعتراف لزوجته هذه الليلة بأنّه شعر

بالارتياح، وأحسّ كما لو أن ثقلاً لازمه منذ أن حلّ في منزل والديه انزاح عن صدره. وبينما غفت عيناه، وتخدّرت أطرافه من البرد، تذكّر العودة إلى باريس. تخيّل شقته مثل حوض سمك غزته الطحالب المتعفّنة، كحفرة لم يعد يجري فيها الهواء، تدور في داخلها حيوانات منتوفة وهي تزمجر.

لكنّه ما كاد يعود إلى شقته، حتّى نسي هذه الأفكار والرؤى القاتمة. كانت لويز قد وضعت باقة زهر في الصالون، وجهّزت العشاء، وغسلت الأغطية. وهكذا، بعد أسبوع ناموا فيه على أسِرّة باردة، وأكلوا على مائدة المطبخ وجبات لا تخضع لنظام، عادوا بابتهاج إلى رفاهيتهم الأسرية، تلك الرفاهية التي لم يعودوا قادرين على الاستغناء عنها بعد أن صاروا يتصرّفون كالأطفال المدللين والقطط الأليفة.

بعد ساعات قليلة على سفر بول ومريم، عادت لويز أدراجها، واجتازت شارع هوتفيل، ثمّ دخلت شقة آل ماسي وفتحت المصاريع التي أغلقتها مريم. غيّرت كلّ الأغطية، وأفرغت الخزانات ونظّفت الرفوف، ونفضت الزربية البربرية القديمة التي ترفض مريم التخلّص منها، ثمّ كنست البيت بالمكنسة الكهربائية.

لمّا فرغت من أداء واجبها، جلست على الأريكة فغلبها النعاس. لم تخرج طوال الأسبوع. كانت تقضي يومها كاملاً في الصالون أمام التلفاز المشغّل. ولم تنم أبداً في فراش بول ومريم. كانت تعيش على الأريكة. وحتّى لا تنفق شيئاً، جعلت تقتات ممّا هو موجود في الثلاجة، ومن المؤن الموضوعة في المخزن، والتي لا تعرف عنها مريم شيئاً على الأرجح.

كانت برامج التلفزة تتوالى. بعد برامج الطبخ تأتي الأخبار، ثمّ برامج الترفيه وحلقات تلفزة الواقع، تليها البرامج الحوارية التي كانت تُضحكها. وكثيراً ما كانت تنام وهي تتابع برامج التحقيقات البوليسية. وقد شاهدت ذات ليلة حلقة حول رجل عُثر

عليه ميّتاً في منزله الواقع بمدخل إحدى المدن الجبلية الصغيرة. ظلّت النوافذ مغلقة لمدّة شهر، وامتلأت علبة البريد عن آخرها بالرسائل، ولم يتساءل أحد مع ذلك عن مصيره. ولم يفتح رجال الإطفاء الباب ويكتشفوا جثّته إلا بمناسبة إجلاء سكان الحي. كانت الجثة لا تزال على حالها بسبب برودة الغرفة والهواء الموجود في داخلها. وقد كرّر المعلّق مراراً أنّ تاريخ الوفاة لم يُعرف إلا بفضل كؤوس الياوورت الموجودة في الثلاجة، والتي يعود تاريخ انتهاء صلاحيتها إلى شهور خلت.

* * *

وذات يوم، استيقظت لويز من قيلولتها مرعوبة. كانت قد نامت ذلك النوم الثقيل الذي يستيقظ منه الإنسان حزيناً ومشوّشاً، لا يرغب إلا في البكاء. نوم من العمق والقتامة حتّى ليظن المرء أنّه مات، بحيث يغمره عرق بارد وشعور بالإنهاك. انتفضت وانتصبت جالسة، ومضت تضرب على وجهها. أحسّت بصداع شديد ولم تستطع فتح عينيها. كان قلبها يخفق بشدّة، تكاد دقاته تُسمع من بعيد. بحثت عن حذائها، وما إن قامت حتى زلقت على الأرضية الخشبية وسقطت، فراحت تنتحب من الغضب. لقد تأخّرت. سينتظرها الأطفال وستتّصل المدرسة، وتُعلِم الروضة مريم بغيابها. كيف سوّلت لها نفسها بأن تنام؟ كيف تصرّفت بهذه اللامبالاة؟ ينبغي أن تخرج وتنطلق جارية. لكن، أين هي مفاتيح الشقّة؟ بحثت عنها في كلّ مكان، ورمقتها أخيراً على المدفأة. اندفعت إلى الخارج مسرعة. وتهيّأ لها لمّا خرجت تجري لاهثة

كالمجنونة، أنّ كلّ الناس ينظرون إليها. شعرت بألم حادّ في خاصرتها فوضعت يدها على بطنها من دون أن تخفّف الخطو.

لا يوجد أحد يساعدها على عبور الشارع. عادة ما يوجد شخص يرتدي سترة فلورسنت ويحمل لافتة في يده. إمّا ذلك الشاب الأدرد الذي تشتبه في أنّه حديث الخروج من السجن، أو تلك المرأة الفارعة السمراء التي تعرف أسماء الأطفال واحداً واحداً. ولا يوجد أحد أيضاً أمام باب المدرسة. ألفت لويز نفسها وحيدة كالبلهاء. وشعرت بطعم حموضة يلسع لسانها، وتملّكها الغثيان. لا وجود للأطفال هناك. ها هي تسير مطأطأة الرأس، باكية. نسيت أنّهم في عطلة. وضربت على جبهتها مفزوعة.

* * *

اتصلت بها وفاء عدّة مرّات ذلك اليوم، لا لشيء إلا لكي «تتجاذب معها أطراف الحديث». واقترحت عليها أن تزورها. ذلك أنّ مشغّليها في عطلة أيضاً، ولأوّل مرّة وجدت نفسها حرّة تستطيع أن تفعل ما تشاء. تساءلت لويز عمّا أعجب وفاء فيها. فهي لا تصدّق أن يستطيب أحد عشرتها مع ما في طبعها من حدّة. لكن الكابوس الذي راودها بالأمس ما زال يلازمها، لذلك قبلت العرض. وضربت لصديقتها موعداً أمام باب عمارة آل ماسي. وفي الردهة، مضت وفاء تتحدّث بصوت عالٍ عن المفاجأة التي تخفيها ها هنا في هذه الحقيبة البلاستيكية. وأومأت لها لويز بأن تصمت. خشيت من أن يسمعها الجيران. صعدت

الطوابق بلا حسّ وفتحت باب الشقة. بدا لها الصالون حزيناً، فوضعت راحتيها على عينيها. ودّت لو تقفل راجعة، وتدفع وفاء في السلم، وتعود إلى التلفزة التي تبصق صورها المُطَمئِنة. لكن وفاء وضعت كيس البلاستيك على طاولة المطبخ وأخرجت منه أكياس بهارات ودجاجة وعلبة زجاجية أخفت فيها حلوى العسل. «ما رأيك في أن أطبخ لك؟».

لأوّل مرّة في حياتها تجلس لويز على الأريكة وتنظر إلى شخص يطبخ لها. فهي لا تذكر حتّى في طفولتها أنّها رأت أحداً يفعل هذا من أجلها هي، بمفردها، بغاية إرضائها. لمّا كانت صغيرة، كانت تأكل بقايا أطباق الآخرين. كانوا يقدمون لها حساء ساخناً في الصباح، وحساء يعيدون تسخينه يوماً بعد يوم إلى آخر قطرة. كانت مجبرة على شرب الصحن بكامله رغم الدهون المتجمّدة على جنباته، ورغم طعم الطماطم الحامضة والعظام الممشوشة.

ثمّ سكبت وفاء لنفسها ولصديقتها فودكا مزجتها بعصير تفاح مثلّج، وقالت وهي تقرع كأسها بكأس لويز: «أحب الكحول عندما يُمزج بشيء حلو». ومضت تتفحّص التّحف، وتنظر في رفوف المكتبة، فأثارت صورة انتباهها. «أهذه أنت؟ ما أجملك في هذا الفستان البرتقالي!». بدت لويز في الصورة مسرّحة الشعر، باسمة وهي جالسة على حائط قصير، تحمل في كلّ ذراع من ذراعيها طفلاً. وقد أصرّت مريم على وضع هذه الصورة في الصالون، على أحد الرفوف، وقالت للمربيّة: «أنت فردٌ من أفراد الأسرة».

ما زالت لويز تذكر جيّداً اللحظة التي التقط فيها بول هذه الصورة. كانت مريم قد دخلت إلى متجر سيراميك، ولم تستطع أن تحسم اختيارها بسرعة. بقيت لويز خارج المتجر في ذلك الزقاق التجاري الضيّق لتعتني بالطفلين. وقفت ميلا على الحائط القصير محاولة القبض على قطّ رمادي، وفي هذه اللحظة بالذات قال بول: «انظروا إليّ، أنت والأطفال يا لويز! فالإضاءة رائعة». جلست ميلا ملتصقة بلويز، فهتف بول: «هيّا، ابتسموا الآن!».

* * *

ومضت لويز تحكي: «هذه السنة سنعود إلى اليونان»، ثمّ أضافت وهي تشير إلى الصورة بطرف ظفرها المطلي: «إلى سيفنوس». لم يثيرا هذا الموضوع بعد، ولكن لويز متأكّدة من أنّهما سيعودان إلى الجزيرة للسباحة في المياه الصافية، والعشاء في المرفأ على أضواء الشموع الخافتة. قالت لوفاء التي جلست أرضاً عند قدميها إن مريم تضع قوائم تجدها مرميّة في كلّ أرجاء البيت، في الصالون بل حتّى تحت سريرها، كُتب عليها أنهم سيعودون إلى هناك قريباً. سيمشون في الجداول، ويمسكون السلطعونات وخيار البحر الذي ستراه لويز ينسحب إلى أسفل الدلو. ستسبح أبعد فأبعد، وهذا العام، سيلحق بها آدم.

سيذهبون ليلة العودة بلا شكّ إلى المطعم الذي نال إعجاب مريم كثيراً، حيث اختارت صاحبته للأطفال أسماكاً معروضة لا تزال حيّة. هناك سيشربون قليلاً من الخمر وستعلن لهم لويز قرارها بعدم العودة. «لن أركب معكم الطائرة غداً. سأستقرّ هنا».

سيتفاجؤون بالطبع، ولن يأخذوا كلامها على محمل الجدّ. سيضحكون بسبب إفراطهم في الشرب، أو لأنهم تضايقوا من الخبر. وأمام إصرار المربية، سيتملّكهم القلق، وسيحاولون إعادتها إلى رشدها. «ولكن بقاءك يا لويز لا معنى له. ماذا ستفعلين هنا؟ وكيف ستعيشين؟»، وهنا سيأتي دور لويز لتضحك منهم. «لقد فكّرت في الشتاء طبعاً». لا شكّ في أنّ وجه الجزيرة يتغيّر في هذا الفصل. ولا شكّ أيضاً في أنّ هذه الصخرة الجافّة، وهذه المرتفعات المكسوة بالزعتر والأشواك ستبدو عدوانية تحت أضواء نوفمبر. لا بدَّ أنّ قمم الجبال ستبدو قاتمة مع سقوط الأمطار الأولى. لكن ذلك لن يثنيها عن قرارها، ولن يجبرها أحد على العودة. ستنتقل إلى جزيرة أخرى ربّما، لكنّها لن تعود إلى الخلف.

ثمّ أضافت وهي تفرقع بأصابع يدها: «أو لن أقول لهم شيئاً، سأختفي فجأة، ومن دون سابق إعلام».

كانت وفاء تنصت للويز وهي تتحدّث عن مشروعها. ولم تجد صعوبة في تخيّل تلك الآفاق الزرقاء، والأزقة المرصّفة، وحصص السباحة الصباحية، بل إن ذلك أجّج حنينها. فقد أيقظت فيها قصص لويز كثيراً من الذكريات، واسترجعت رائحة المحيط الأطلسي اللاذعة في المساء على الكورنيش، وشروق الشمس الذي تتابعه الأُسرة بأكملها خلال رمضان. لكن لويز استغرقت في الضحك فجأة، وأخرجت وفاء من حلمها. راحت تضحك مثل طفلة صغيرة خجولة تخفي أسنانها خلف راحتها، ومدّت يدها إلى صديقتها التي هبّت لتجلس بجانبها على الأريكة. ورفعتا

كأسيهما، وشربتا الأنخاب. صارتا أشبه بطفلتين، بتلميذتين عزّزت مزحة التواطؤ بينهما، أو قرّب بينهما سرٌّ لا يعرفه غيرهما. طفلتان تائهتان في عالم الكبار.

تغلب على وفاء غريزة الأمومة أو الأخوة، لذلك راحت تعتني بلويز. قدّمت لها كأس ماء، وحضّرت القهوة، وحملتها على الأكل. أمّا لويز فبسطت ساقيها وشبكت رجليها على المائدة. ومضت وفاء تنظر إلى نعل لويز القذر الموضوع أمام كأسها، فقالت في نفسها إنّ صديقتها ما كانت لتتصرف بهذا النحو لو لم تكن ثملة. فلطالما أعجبتها أخلاق لويز وحركاتها المهذّبة، بحيث يتوهّم من يراها أنّها بورجوازية حقيقية. ووضعت وفاء قدميها الحافيتين على جانب المائدة، وقالت بنبرة داعرة: «ومن يدري؟ ربّما التقيتِ في الجزيرة برجل يوناني وسيم، يسقط في غرامك».

فأجابتها لويز: «كلا يا وفاء، فأنا لن أذهب إلى هناك إلا لكي لا أعتني بأحد. أنام متى شئت، وآكل ما اشتهيت».

لم يكن الاحتفال بزواج وفاء مقرّراً في أوّل الأمر. كانت ستقتصر على الذهاب إلى دار البلدية، وتوقّع الوثائق ثمّ تشرع في دفع مبلغ مالي معلوم ليوسف كلّ شهر إلى أن تحصل على أوراق إقامتها الفرنسية. لكنّ الزوج المزعوم غيّر رأيه، وأقنع أمّه بأنّه من الأليق دعوة بعض الأصدقاء. «مهما يكن، فهذا عرسي. ثمّ، من يدري، قد يساعد هذا في التمويه على مصلحة الهجرة».

هكذا ضربا موعداً صباح ذات جمعة أمام دار بلديّة نوازي لو سيك. ارتدت لويز التي كانت من بين الشهود فستانها ذا طوق كلودين، وقرطين بيضاوين، ووقّعت أسفل الورقة التي ناولها العمدة إيّاها، وبدا الزواج حقيقياً إلى حدٍّ بعيد. وتعالت الهتافات بحياة العروسين، بل حتّى التصفيقات بدت صادقة.

ثمّ توجه الموكب الصغير سيراً إلى مطعم غزالة أكادير الذي يسيّره أحد أصدقاء وفاء، والذي سبق أن اشتغلت فيه كنادلة. أمّا لويز فظلّت واقفة تراقب الحاضرين وهم يتحدّثون ويضحكون ويربتون على أكتاف بعضهم بعضاً. وأمام المطعم، ركَنَ إخوة

يوسف سيّارة سوداء زيّنوها بعشرات الأشرطة البلاستيكية المذهّبة.

أطلق صاحب المطعم موسيقى صاخبة من دون أن يأبه بالجيران. لعلّه ظنّ أنّ ذلك سيُشهر مطعمه، وأنّ المارة في الشارع سيرون من خلال زجاج النوافذِ الموائدَ المبسوطة، وسيغبطون الضيوف على بهجتهم. لاحظت لويز أنّ للنساء بخاصّة وجوهاً عريضة، وأيادي سمينة، وأردافاً ضخمة زادتها الأحزمة المشدودة بروزاً. وهنّ يتحدّثن بصوت مرتفع، ويضحكن، وينادي بعضهنّ على بعض من أقصى الصالة إلى أقصاها. وهنّ يُحطن بوفاء التي أُجلِست في المائدة الرئيسية بحيث يتعذّر عليها أن تتحرّك حسبما فهمت لويز.

أمّا لويز فأُجلِست في أقصى القاعة، بعيداً عن النافذة المطلّة على الشارع، إلى جانب رجل قدّمته لها وفاء ذلك الصباح. «سبق أن حدّثتك عن إيرفي، هو من قام بأشغال الإصلاح في الغرفة التي أسكنها. وهو يشتغل في مكان غير بعيد عن الحي». وقد تعمّدت وفاء إجلاسه بجانبها، لأنّه من نوع الرجال الذي تستحقّه. هذا الرجل الذي لا يرغب فيه أحد، ولكن لويز اعتبرته مثل لباس قديم أو مجلّة قُرئت ونُزعت بعض صفحاتها، بل أشبه بفطائر أكل منها الأطفال.

لم يعجبها إيرفي، وضايقتها نظرات وفاء المِلحاحة. فهي لا تطيق هذا الشعور الذي ينتابها لمّا تشعر بنفسها مُراقبة ومُحاصرة. ثمّ إنّ الرجل ليس فيه ما يلفت الانتباه أو يثير الإعجاب. فهو بالكاد أطول منها، له ساقان قويتان، لكنّهما قصيرتان. كما أنّه

ضيق الردفين، قصير العنق، ولمّا يتكلّم، يُدخل رأسه أحياناً بين كتفيه فيبدو كسلحفاة خجولة. ولم تتوقّف لويز عن النظر إلى يديه الموضوعتين على المائدة. يدا رجل كادح فقير ومدخّن. لاحظت أيضاً أنّ بعض أسنانه سقطت. لا شيء يميّزه، وتفوح منه رائحة الخيار والنبيذ. وأوّل شيء تبادر إلى ذهنها هو أنّها ستخجل من تقديمه لمريم وبول. ستصيبهما الخيبة إن فعلت. سيقولان في نفسيهما لا محالة إنّ هذا الرجل لا يناسبها.

أمّا إيرفي فراح بالمقابل يتفرّس لويز كما يتفرّس عجوز باشتهاء امرأة شابة أبدت له بعض الاهتمام. وجدها بالغة الأناقة والرقّة. تأمّل ياقتها المتقنة، وقرطيها الأنيقين، وأنعم النظر في يديها. يدان صغيرتان بيضاوان بأظافر وردية، تبدو عليهما علامات المعاناة والكدح. ذكّرته لويز بتلك الدمى الخزفية التي يراها على الرفوف في شقق العجائز التي يدخلها أحياناً لأداء خدمة أو إجراء إصلاح. وعلى غرار تلك اللعب، فإنّ قسمات لويز ثابتة تقريباً، تتّخذ أحياناً هيئات جامدة بالغة الجمال. لها نظرات ساهمة حتّى إنّ إيرفي همّ بإخراجها من سهومها.

حدّثها عن مهنته كسائق يوزّع السلع. لكنّه يقوم علاوة على ذلك بخدمات متنوعة كالإصلاح ونقل أمتعة من يغيّرون مساكنهم، وحراسة موقف سيارات أحد المصارف ثلاثة أيام في الأسبوع. ثمّ أضاف: «هذا يفسح لي وقتاً لقراءة روايات بوليسية، لكنّني أقرأ أشياء غيرها». ولمّا سألها عن مقروءاتها، لم تعرف جواباً.

«والموسيقى؟ أتحبّين الموسيقى؟»، هو يهيم بحبّها. وراح يحاكي بأصابعه الزرقاء الصغيرة حركة شدّ حبال القيثارة. تحدّث

عن الفترة السابقة، عن الماضي، عن الزمن الذي كان فيه الناس ينصتون للموسيقى على الأشرطة، وكان المغنون يُعبَدون كالأوثان. له شعر طويل، وهو من المعجبين بجيمي هيندريكس. قال لها: «سأريك صورته». وتنبّهت لويز إلى أنّها لم تنصت للموسيقى قطّ، ولم تتذوّقها أبداً. لا تعرف غير ترانيم الأطفال والأغاني المبتذلة التي تنقلها الأمهات إلى بناتهن. وقد فاجأتها مريم ذات مساء وهي تدندن بنغمات مع الطفلين، فأثنت على صوتها. «شيء مؤسف، كان من الممكن أن تكوني مغنية».

لم تلاحظ لويز أنّ معظم المدعوين لا يشربون الكحول. ففي وسط كلّ طاولة وضعت زجاجة مشروب غازي وقنينة ماء. وقد أخفى إيرفي على الأرض، إلى يمينه تحت المائدة، زجاجة نبيذ، وكان يسكب منها في كأس لويز كلّما أفرغته. كانت تشرب ببطء، وانتهى بها الأمر أن اعتادت على الموسيقى الصاخبة، وضجّة الحاضرين، وعلى أحاديث الشباب غير المفهومة، الذين كانوا يلصقون شفاههم بالميكروفون، بل إنّها ابتسمت لمّا نظرت إلى وفاء، ونسيت أنّ كلّ هذا لا يعدو أن يكون تمثيلية، مجرّد خدعة.

استرسلت في الشرب وإذا بكلّ شيء يذوب فيما ترتشف بطرف شفتيها: تذمّرها من الحياة وخجلها وكلّ مشاقّها. وسرعان ما اتّخذ ابتذال المطعم وتفاهة إيرفي مظهراً جديداً في عينيها. بدا لها صوته لطيفاً، وكلامه بعيداً عن الثرثرة. مضى ينظر إليها ويبتسم، ثم طأطأ رأسه وراح يحدّق في المائدة. ولم تعد لويز تمتعض من عينيه الصغيرتين المنزوعة الأهداب، وشعره الشحيح، وبشرته الأرجوانية.

ولم تعترض على أن يرافقها إيرفي إلى مدخل محطة الميترو، ثمّ ودّعته ونزلت السلم من دون أن تلتفت إلى الوراء. أما إيرفي ففكّر فيها في طريق عودته. سكنته مثل أنغام أغنية إنجليزية مدوّخة مضت سنوات وهو يردد لازمتها المفضلة من دون أن يفهم شيئاً من كلماتها.

فتحت لويز باب الشقة ككلّ صباح على الساعة السابعة والنصف، فوجدت بول ومريم واقفين في الصالون، كما لو أنّهما كانا ينتظرانها. بدا وجه مريم كوجه دابّة جائعة قضت كامل الليل وهي تدور في قفصها. أما بول فشغّل التلفاز، وسمح، على غير عادته، للطفلين بمشاهدة الرسوم المتحرّكة قبل الذهاب إلى المدرسة.

أمر الصغيرين اللذين كانا يحدّقان فاغرين في فيلم أرانب مشاغبة: «لا تبرحا مكانكما».

أغلق الثلاثة على أنفسهم باب المطبخ، وطلب بول من لويز أن تجلس، فسألته: «هل أحضّر لك قهوة؟».

فأجاب بفظاظة: «كلا، شكراً».

كانت مريم جالسة خلفه مطأطئة، وقد وضعت يدها على شفتيها.

«لقد تلقينا رسالة مربكة يا لويز. لا أخفيك أنّها أزعجتنا كثيراً. هناك أشياء لا يمكن التسامح فيها».

مضى يتحدّث من دون أن يلتقط نفسه وعيناه مصوّبتان على الظرف الموجود بين يديه.

انقطعت أنفاس لويز، ولم تعد تشعر بلسانها، ولا بدَّ أنها عضت على شفتيها لكي لا تبكي. ودّت لو تفعل مثل الأطفال، تغلق أذنيها وتتمرّغ أرضاً وهي تصرخ، وتفعل أيّ شيء حتّى لا تسمع هذا الكلام. حاولت أن تتفرّس الرسالة التي يمسكها بول بين أصابعه لعلّها تتعرّف إليها، لكنّها لم تبصر منها شيئاً، لا العنوان ولا محتواها.

وفجأة اقتنعت بأنّها آتية من السيدة غرينبرغ. لربّما تلصّصت عليها خلال غياب بول ومريم، وها هي الآن تبعث برسالة مجهولة المصدر تفضحها فيها، وتضمّنها نمائمها لكي تتسلّى من وحدتها. لا بدَّ أنّها أخبرتهما بأنّ لويز قضت العطلة هنا، وأنّها استقبلت وفاء. إن صحّ هذا، فهي لم تكلّف نفسها توقيع الرسالة وذلك حتّى تضفي عليها من ألغازها وشيطنتها. وقد تكون اختلقت أموراً وخطّت على الورق استيهاماتها، وهذياناتها الفاسقة. كلا، لن تتحمّل نظرات مريم، نظرات مشغّلتها البغيضة التي ستظنّ أنّها نامت في فراشهما، وهزئت منهما.

شعرت لويز بعضلاتها تتصلّب، وأصابعها تتوتّر، فأخفت يديها تحت ركبتيها حتّى لا تظهر عليهما الرجفة. أمّا وجهها فعلاه الشحوب. ومرّرت يديها من خلال شعرها بحركة غاضبة. أمّا بول الذي كان ينتظر ردّها، فاسترسل قائلاً: «هذه الرسالة آتية من الخزينة العامة، يا لويز. طلبوا منّا أن نخصم من راتبك الدين الذي لهم عليك منذ شهور فيما يبدو. الظاهر أنّك لم تجيبي على المراسلات التي بعثوا لك بها!».

سيقسم بول لاحقاً بأنّه لمس الارتياح في نظرة المربية.

«أدرك جيّداً أنّ الإجراء مُخزٍ لك، لكنّه ليس مُبهجاً لنا نحن أيضاً». ومدّ الرسالة للويز التي تسمّرت في مكانها.

«انظري».

أمسكت لويز الظرف، وأخرجت منه الورقة بيدين مبللتين بالعرق ومرتعشتين. كان بصرها مشوّشاً، لكنّها تظاهرت بقراءتها وعدم فهم مضمونها.

«إن كانوا قد بلغوا معك هذا المبلغ، فلأنّ هذا هو ملاذهم الأخير، أفهمت؟».

وعلّقت مريم: «لا يمكن أن تكوني بهذا الإهمال».

فردّت لويز:

«أنا آسفة، آسفة يا مريم. أعدكما بأنّني سأسوّي هذا المشكل.

- أستطيع أن أساعدك إن احتجت إلى المساعدة. ينبغي أن تحضري كلّ الوثائق لكي نتمكّن من البحث عن حلّ».

حكّت لويز وجنتها براحتها وهي ساهمة. كانت تعرف أنّ عليها أن تقول شيئاً. ودّت لو تضمّ مريم بين ذراعيها، وتشدّها إليها، وتطلب منها المساعدة. ودّت لو تقول لها إنّها وحيدة، وأنّ أشياء كثيرة وقعت لها لم تستطع أن تحكيها لأحد، لكنّها مستعدّة لأن تطلعها عليها. كانت مرتبكة ومرتعشة، لا تدري كيف تتصرّف.

حاولت أن تظهر بمظهر لائق، ودافعت عن نفسها بأنّ الأمر لا يعدو أن يكون سوء تفاهم ناتج عن تغيير العنوان. وألقت باللائمة على زوجها جاك الذي كان كتوماً وقليل التبصّر. أصرّت

على الإنكار رغم أنّ البداهة والوقائع تدينها. وبدا خطابها بالغ الغموض والسخافة حتّى إنّ بول رفع عينيه للسماء وقال:

«حسناً، حسناً، هذا شأنك، حاولي تسويّته. أتمنّى ألا تصلني مثل هذه الرسائل مرّة ثانية».

لقد تبعتها الرسائل من بيت جاك إلى شقّتها الصغيرة، وها هي الآن تلاحقها إلى هنا، إلى هذا البيت المتوقّف على وجودها. بعثوا إليها بالفواتير غير المسدّدة من راتب جاك، وكذا ضريبة السكن التي زيد مبلغها، ومتأخّرات أخرى من قروض تجهل مصدرها. ظنّت بسذاجة أنّهم سيستسلمون أمام صمتها وتظاهرها بالموت، ولا سيما أنّها لا تمثّل شيئاً، ولا تملك شيئاً. فيمَ ستفيدهم مطاردتها؟

* * *

أمّا الرسائل، فهي تعرف مكانها. لم تُلقِ بها في القمامة. هي موجودة تحت عدّاد الكهرباء. كانت تنوي إحراقها. فهي لا تفهم -على كلّ حال- شيئاً من تلك الجمل الطويلة، والجداول التي تشغل صفحات تضمّ أعداداً كبيرة شبيهة بتلك الأعداد التي رأتها لمّا كانت تساعد ستيفاني على إنجاز واجباتها المدرسية. كانت تحاول مساعدتها في حلّ المسائل الرياضية، لكن ابنتها كانت تسخر منها وتقول ضاحكة: «ما شأنك بكلّ هذا؟ أنت لا تعرفين شيئاً على كل حال».

* * *

لمّا ألبست الطفلين لباس النوم تلك الليلة، تلكّأت في غرفتهما بينما كانت مريم منتصبة عند المدخل تنتظرها. «بإمكانك أن تنصرفي الآن، نلتقي غداً». ودّت لويز لو تبقى، وتنام هناك، عند قدم سرير ميلا. لن تُحدث ضجّة، ولن تزعج أحداً. فهي لا تريد العودة إلى شقّتها الصغيرة. كانت تتأخّر كلّ مساء أكثر من سابقه، وتسير في الشارع خافضة رأسها وقد رفعت وشاحها حتى غطى ذقنها. كانت تخاف من لقاء صاحب البيت، ذلك العجوز ذو الشعر الأحمر والعينين المحقونتين بالدم. رجل بخيل لم يثق فيها إلا «لأنّ تأجير شقّة لشخص أبيض في هذا الحي أمر بعيد المنال». لا بدَّ أنه نادم على ذلك الآن.

ولمّا ركبت قطار الشبكة الجهوية السريعة، صكّت أسنانها حتّى تتمالك نفسها من البكاء. بلّل مطر خفيف بارد معطفها وشعرها، وسقطت قطرات ضخمة من السقائف على عنقها، فاقشعرّ بدنها. وما إن وصلت إلى الشارع الذي تقطنه حتّى شعرت بأنّها مراقبة، مع أنّ الشارع خالٍ. التفتت إلى الخلف، فلم تجد أحداً. ثمّ لمحت في العتمة، بين سيارتين، رجلاً مقرفصاً. رمقت فخذيه العاريتين، وإحدى يديه الضخمتين موضوعة على ركبته، بينما تمسك الأخرى بورقة جريدة. نظر إليها من دون أن يبدو عليه الانزعاج أو العدوانية. تراجعت وقد تملّكها الغثيان، وودّت لو تصرخ، وتُشهد عليه المارّة. رجل يتبرّز في الشارع أمام عينيها. رجل لم يظهر عليه الخجل لأنّه معتاد بلا شكّ على هذا، يفعله من دون حياء ولا مروءة. جرت لويز إلى باب عمارتها ثمّ صعدت السلم وهي ترتعد. رتّبت كلّ شيء في الشقّة، وغيّرت

الأغطية. وودّت لو تغتسل وتمكث طويلاً تحت رشاش الماء الساخن لعلّها تستدفئ، لكن الرشاش تعطل منذ أيام. تعفّن الخشب الذي وُضع عليه الحوض، وتكسّر، فنزع الرشاش من مكانه وأوشك على السقوط. ومنذئذٍ صارت تغتسل في حوض الغسيل. وقد غسلت شعرها قبل ثلاثة أيام وهي جالسة على كرسي من الفورميكا.

ولمّا آوت إلى فراشها، جفاها النوم. لم تفارقها صورة ذلك الرجل في العتمة. ولم تستطع أن تتمالك نفسها من تخيّل أنّها هي من تفعل ذلك في المستقبل. سيلقى بها في الشارع، وحتّى هذه الشقة القذرة ستضطر إلى تركها لتتبرز في الخارج كالدابة.

في صباح اليوم الموالي، لم تستطع لويز القيام من سريرها. فقد لازمتها الحمّى طوال الليل، حتّى إنّ أسنانها باتت تصطك، وتورّم حلقها وتقرّح، ولم تعد تستطيع بلع حتّى ريقها. وما كادت تصل السابعة والنصف صباحاً حتّى سمعت الهاتف يرنّ، لكنّها لم ترد مع أنّها لمحت اسم مريم على الشاشة. فتحت عينيها، ومدّت ذراعها نحو الجهاز وأغلقته، ثمّ دفنت رأسها في الوسادة.

ورنّ من جديد.

وهذه المرّة تركت مريم رسالة: «صباح الخير لويز، أتمنّى أن تكوني بخير. الساعة الآن تشير إلى الثامنة، وميلا مريضة منذ مساء الأمس، باتت محمومة. لدي قضية مهمّة للغاية. سبق أن أخبرتك بأنّني سأترافع اليوم. أتمنّى أن يكون كلّ شيء على ما يرام، وألا يكون أصابك مكروه. اتّصلي بي بمجرّد توصّلك بهذه الرسالة. نحن بانتظارك». ألقت لويز بالهاتف عند رجليها، وتكوّمت تحت الغطاء. حاولت أن تنسى عطشها الشديد ورغبتها الملحّة في الذهاب إلى المرحاض. فهي لا تريد أن تتحرّك من هنا.

دفعت سريرها حتى التصق بالجدار لكي تستفيد من الحرارة الضئيلة المنبعثة من جهاز التدفئة، ثمّ استلقت وقد كاد أنفها يلامس زجاج النافذة. شعرت وهي تنظر إلى الأشجار العارية في الشارع كما لو أنّ الدنيا ضاقت بها، ولا جدوى من مواصلة المقاومة، وليس أمامها إلا أن تستسلم، وتذعن للظروف، وتترك التيار يجرفها. جمعت في اليوم السابق الأظرفة وفتحتها ثمّ مزّقتها واحداً واحداً، ورمت القطع في المجرى وفتحت الصنبور. وبعد أن تبللت تلك القطع، وصارت كعجينة قذرة، راحت تنظر إليها وهي تتحلّل تحت دفق الماء الحارق. ورنّ الهاتف مراراً. ورغم أنّها رمته تحت الوسادة، فإنّ رنّته الحادة منعتها من العودة إلى النوم.

* * *

استبدت الحيرة بمريم حتّى إنّها لم تنتبه لبذلة المحاماة الموضوعة على المقعد المخطّط، فداستها. وقالت لبول: «لن تعود. ليست هذه هي أوّل مرّة تختفي فيها مربّية هكذا فجأة. لقد سمعتُ عشرات القصص المشابهة». حاولتْ أن تتّصل بلويز مراراً، لكنّ صمتها أصابها باليأس. هاجمت بول، واتّهمته بالقسوة عليها، ومعاملتها كما لو كانت خادمة عادية. ثمّ علقت: «لقد امتهنّا كرامتها».

أمّا بول، فحاول أن يعقّل زوجته. لا شكّ أنّ لويز تواجه مشكلة. قد يكون أصابها مكروه. لا يُعقل أن تتركهم هكذا من دون سبب. فهي شديدة التعلق بالطفلين، ولا يمكن أن تغادر من

دون أن تودّع. «عوض أن تضيّعي الوقت في تخيّل هذه السيناريوهات الوهمية، حريّ بك أن تفتشي عن عنوانها في عقدة الشغل. إن لم ترد في غضون ساعة، سأذهب إلى بيتها».

وبينما كانت مريم مقرفصة تبحث عن العقدة في الأدراج، رنّ الهاتف، وإذا بلويز تعتذر بصوت بالكاد يسمع. أنهكها المرض بحيث لم تقوَ على مغادرة الفراش. كما أنّ النوم غلبها في الصباح، فلم تسمع الهاتف. وكرّرت عبارة «آسفة» عشر مرّات على الأقل. أمّا مريم فتفاجأت بهذا التفسير البسيط، وشعرت بشيء من الخجل من أنها لم تفكّر في أن المانع قد يكون عارضاً صحياً عادياً، كما لو أن جسد لويز لا يعرف التعب أو المرض. ثمّ أجابت: «فهمت، لا عليك، اخلدي إلى الراحة الآن، سنحاول تدبّر أمرنا».

اتّصل بول ومريم بالأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة، إلى أن قدّم لهما أحدهم رقم طالبة «يمكن أن تهبَّ لنجدتهما»، ومستعدّة، لحسن الحظ، لأن تنتقل إلى البيت فوراً. على أنّ مريم لم تطمئن للشابة، وهي فتاة شقراء في العشرين من عمرها، ذلك أنّها لمّا دخلت إلى الشقة، أخذت تتلكّأ في نزع حذائها ذي الكعب العالي. ولاحظت على عنقها وشماً بشعاً. ولمّا شرعت توصيها بالمتعيّن عليها فعله، كانت تسارع إلى الإجابة «حسناً» من دون أن يبدو عليها أنّها فهمت، كما لو أنّها تقول ذلك لمجرّد التخلّص من هذه المشغِّلة المتوترة الملحاحة. ولكي تظهر أنّها فهمت المطلوب منها، راحت تتكلّف قلقاً أمومياً على ميلا التي كانت لا تزال تغالب النوم على الأريكة.

لكنّ صدمة مريم كانت أشدّ لما عادت إلى البيت في المساء. ذلك أنّها وجدت الشقة في حالة من الفوضى العارمة. اللعب متناثرة في كلّ مكان، والأواني المتّسخة مرمية في حوض المطبخ، وحساء الجزر متيبّس على المائدة. وما إن رأت الشابة مريم، حتّى تنفّست الصعداء كسجينة أُطلِق سراحها. تناولت النقود، وهرولت إلى الباب وهي تمسك بهاتفها النقال. ستكتشف مريم لاحقاً عشرات أعقاب السجائر الملفوفة في الشرفة، كما ستنتبه للتلف الذي أصاب طلاء المنضدة الزرقاء في غرفة الطفلين بعد أن ذاب عليها مثلج شوكولا نسيته الشابة هناك.

قضت لويز ثلاثة أيام في الكوابيس. لم تكن تنام نوماً عادياً، بل تغرق في سبات مضطرب، تتشوش فيه أفكارها، ويتضاعف غمّها. وفي الليل، يلازمها صراخ داخلي يمزق أحشاءها، ويلتصق القميص بجسدها من شدة التعرق، وتصطك أسنانها، فتتكوم في السرير. ويتهيّأ لها أنّ وجهها ينسحق تحت كعب حذاء من الأحذية، ويمتلئ فمها بالتراب. عندئذٍ يشرع وركاها في الاهتزاز كذنب شرغوف، ويتملّكها إنهاك شديد. تغادر الفراش لتشرب وتذهب إلى المرحاض، ثم تعود إلى مكانها.

كانت تستفيق من النوم مثلما يصعد غطاس من الأعماق بعد أن يغوص بعيداً، وتشتدّ حاجته إلى الأوكسجين، ويصير الماء من حوله مجرد صُهارة قاتمة لزجة، فيصلّي من أجل أن يتبقّى له ما يكفي من القوّة والهواء ليصل إلى السطح ويلتقط أنفاسه.

كانت قد سجّلت في مذكرتها ذات الغلاف المنمّق العبارة التي استعملها طبيب مستشفى هنري-موندور ليصف حالتها: «اكتئاب هذياني». تذكرت هذه العبارة التي أعجبتها، وأحسّت بها كلمسة شاعرية تتسلل إلى حزنها، كفجوة تنفتح أمامها لِتَهَبها فرصة للهروب. دوّنتها بخطها الغريب، بحروف ضخمة، ملتوية

ومضغوطة. إن الكلمات على أوراق هذه المفكرة الصغيرة تشبه تلك البيوت الخشبية المتداعية التي يبنيها آدم لا لشيء إلا لكي يستمتع بمنظرها وهي تتهاوى.

ولأول مرّة تفكر في الشيخوخة، في الجسد الذي يختلّ، والحركات التي تغدو مؤلمة، ومصاريف العلاج التي تتضخّم. ثم هناك الجزع من شيخوخة سقيمة، يمرض فيها الجسد ويظل مستلقياً في الشقة ذات النوافذ الوسخة. ولا تلبث هذه الأفكار أن تتحول إلى هوس، فتكره هذا المكان، وتضيق برائحة العطن المنبعثة من قمرة الاستحمام. فهي تشمّها، بل تشعر بها في فمها. كل الوصلات وكلّ الشقوق تكسوها طحالب خضراء. ورغم إصرارها على تنظيفها كل يوم، تعود لتنمو في الليل على نحو أكثف مما كانت.

وتتعاظم بداخلها الكراهية، كراهية تتناقض مع طبيعتها المذعنة، وتفاؤلها الطفولي. كراهية تشوش كل شيء، فتستسلم لحلم حزين مرتبك تتخيّل فيه أنّها رأت من حميمية الآخرين أكثر مما ينبغي، وسمعت أكثر مما يلزم، حميميّة لم تعرفها هي في حياتها قط، بما أنها لم تملك أبداً غرفة خاصة بها.

* * *

بعد ليلتين مضطربتين، شعرت بأنّها قادرة على استئناف العمل. نحلت، وهزل وجهها الصغير وشحب لونها. مشطت شعرها وتجمّلت ووضعت مسحوقاً بنفسجياً على جفنيها، ثم غادرت الشقة.

وعند السابعة والنصف صباحاً، فتحت باب الشقة الواقعة في شارع هوتفيل. كانت ميلا لا تزال ترتدي منامتها الزرقاء، وما إن رأتها مربّيتها حتى جرت نحوها، وارتمت بين ذراعيها وهي تقول: «أهذه أنت يا لويز؟ عدتِ؟»، بينما راح آدم يتخبط بين ذراعي أمّه حين سمع صوتها، وتعرّف إلى رائحة مسحوق التجميل التي تلازمها، وأحسّ بخطواتها الخفيفة على الأرضية الخشبية. مضى يدفع بيديه الصغيرتين صدر أمّه التي سلّمته باسِمةً لحنان لويز.

توجد في ثلاجة مريم علب صغيرة وضع بعضها فوق بعض، وزبديات مغطاة بورق الألمنيوم. وعلى الرفوف البلاستيكية توجد قطع ليمون، وقطعة خيار ذابل وربع بصلة تملأ رائحتها المطبخ بمجرّد فتح باب الثلاجة، وقطعة جبن لم يتبقَّ منها إلا القشرة.

عثرت مريم في العلب على حبّات بازلاء فقدت استدارتها وخضرتها الزاهية، وثلاث مكرونات، وملعقة عصيدة ومُزقة من لحم الديك الرومي لا تكفي لإطعام عصفور، لكن لويز احتفظت بها مع ذلك.

لقد صار شغفُ لويز بحفظ الطعام، وحرصها الشديد على عدم التخلّص منه، موضوع تندّر بين بول ومريم، ومثار ضحكهما. فهي تمسح جنبات علب التصبير، وتطلب من الطفلين أن يلحسا أكواز الياوورت. وهو ما كانت تجده مريم وزوجها سخيفاً ومؤسياً.

وبول يسخر من مريم أحياناً لمّا تخرج ليلاً القمامة التي تضمّ بقايا طعام أو لعبة من لعب ميلا التي لا يملكان الشجاعة لإصلاحها. يتبعها في السلم وهو يقول ضاحكاً: «ألا تخشين عتاب لويز، هيّا اعترفي!».

وهما يتسلّيان برؤية لويز تتفحّص باستغراق ما يتوصّلون به من إعلانات المتاجر الموجودة في الحي، والتي كانا يرميانها في القمامة دون النظر إليها. تجمع المربية قسائم التخفيضات وتقدّمها بزهو لمريم التي تجد الأمر سخيفاً، لكنّها تخجل من مصارحتها بذلك. على أنّها تضرب بها المثل أحياناً أمام زوجها وطفليها، وتعتبرها قدوة في الاقتصاد. «لويز محقّة، التبذير شيء مذموم. هناك أطفال لا يجدون ما يسدُّ رمقهم». ولم تكد تمضي بضعة أشهر حتّى صارت هذه العادة السيئة منشأ خلاف بين ربّة البيت والمربية. تعيب مريم على لويز هذا الهوس، وتشتكي من صلابتها واضطراب سلوكها. تقول لبول الذي كان مستاءً من هيمنة المربية: «فلتُفتِّش في القمامة إن شاءت، لم يعد يعنيني أمرها». وبدأت مريم تميل إلى الصرامة في التعامل معها. منعتها من تقديم مواد انتهت مدّة صلاحيتها للأطفال. «نعم، ارمي بها في القمامة حتّى لو لم تتجاوز مدّة صلاحيتها إلا بيوم واحد. هذا أمر لا نقاش فيه».

* * *

وذات مساء عادت مريم متأخّرة إلى الشقة، فوجدتها غارقة في الظلام، ولويز، التي كانت بالكاد شفيت من وعكتها، تنتظر خلف الباب واضعة معطفها على ظهرها ومتأبّطة حقيبتها. وما كادت تحيّيها حتّى اندفعت إلى المصعد. لم تفكر مريم في الأمر، ولم تحفل به من شدّة تعبها، وقالت في نفسها: «ماذا يضيرني أن تكون غاضبة؟».

كان من الممكن أن ترتمي على الأريكة وتنام من دون تغيير ملابسها وإزالة حذائها، لكنّها توجّهت إلى المطبخ لتشرب كأساً. اشتهت أن تجلس لحظة في الصالون، وتشرب كأس نبيذ أبيض بارد، وترتخي بينما تدخّن سيجارة. لو لم تخشَ إيقاظ الطفلين، لاستحمّت.

دخلت إلى المطبخ وأشعلت النور. كان أنظف من المعتاد، يفوح برائحة الصابون. لاحظت أنّ باب الثلاجة مغسول، ولا شيء يوجد على طاولة العمل، ولا أثر للدهون على شفاط أبخرة المطبخ. كما أن مقابض الخزانات والنافذة ممسوحة ونظيفة.

وبينما همّت بفتح الثلاجة، رمقته هناك فوق المائدة الصغيرة التي يأكل عليها الطفلان ومربّيتهما. هيكل دجاجة موضوع في صحن. هيكل لامع لم تتبقَّ فيه مزقة لحم، حتى ليظنّ من يراه أنّ عُقاباً أو حشرة عنيدة أكلته.

مضت تتفرّس الهيكل البنّي، بعموده الفقري المستدير الأملس وعظامه الحادة. نُزع منه الفخذان، بينما تدلّى الجناحان بحيث تكاد مفاصلهما تنقطع. أمّا الغضروف المصفرّ اللامع فأشبه بصديد متيبّس. ورأت مريم من خلال الثقوب، وبين العظام الصغيرة تجويف القفص الصدري الفارغ الأسود. لا يوجد على هذا الهيكل لحم ولا أعضاء، لا شيء قابل للتحلّل والتفسخ، ومع ذلك بدا لمريم جيفة، جثّة قذرة تتعفّن أمامها، هنا في مطبخها.

هي متأكدة من أنّها رمت بالدجاجة في القمامة هذا الصباح، لأنّ لحمها لم يعد صالحاً للاستهلاك، وأنّ الطفلين إن أكلاه

سيمرضان. هي تذكر جيّداً أنّها هزّت الطبق فوق كيس القمامة فسقطت الجثّة وقد أحاطت بها طبقة من الدهون المتجمّدة. وحين سمعتها تصطدم بقاع الصندوق قالت: «تبّاً!»، لأن تلك الرائحة الكريهة في الصباح أشعرتها بالغثيان.

اقتربت من الدجاجة من دون أن تجرؤ على لمسها. لا يمكن أن تكون لويز أخطأت ونسيتها هنا، كما لا يمكن أن يكون الأمر دعابة. كلا، فالهيكل يفوح برائحة صابون الغسيل المعطر باللوز. غسلته لويز ووضعته هناك مثل طوطم نحس، كما لو أنّها تنتقم.

* * *

سردت لها ميلا لاحقاً الحكاية بكاملها. مضت تضحك وتقفز وهي تشرح كيف أنّ لويز علّمتهما كيف يأكلان بأصابعهما. وقفت هي وآدم على الكرسي، ومشّشا العظام. كان اللحم جافّاً فسمَحت لهما لويز بشرب كؤوس من الفانتا وهما يأكلان، لكي لا يختنقا. وقد حرصت شديد الحرص على عدم كسر الهيكل، ولم تكن تحوّل بصرها عن الدجاجة. قالت لهما إنّها لعبة وأنّها ستكافئهما إن طبّقا القواعد بحذر. وفي الأخير حصلا على قطعتي حلوى بنكهة الليمون.

هيكتور روفيي

رغم مرور السنين، ما زال هيكتور روفيي يتذكر تماماً يدي لويز اللتين كانتا تلمسانه معظم الوقت. كانت أظافرهما ملمعة دائماً، وتفوحان برائحة الورد. وقد كان هيكتور يشدّهما، ويضمّهما إليه، ويحسّ بهما على رقبته لمّا يكون مستغرقاً في مشاهدة فيلم على الشاشة الصغيرة. وكانتا تغطسان في الماء الساخن، وتفركان جسده النحيل. تضعان الصابون على شعره، وتغسلان تحت إبطيه وفرجه وبطنه وردفيه.

كان ينام في سريره ويدفن وجهه في الوسادة، ثم يرفع الجزء العلوي من منامته ليشير للويز بأنّه ينتظر مداعباتها. تجسّ بأطراف أظافرها ظهره فتقشعر بشرته، وينام مطمئنّاً وقد ساوره شيء من الخجل، مخمّناً على نحو غامض الإثارة التي غمسته فيها أصابع لويز.

وكان هيكتور يشدّ بقوة علي يد مربيته وهما عائدان من المدرسة. وبمقدار ما كان يكبر، كانت راحتاه تنموان وتتوسّعان، ويزداد خوفه من أن يسحق عظام لويز، تلك العظام الهشة كما لو كانت من البسكويت أو الفخار. كانت عظمات يد المربية تفرقع

في راحته، فيخيّل إليه أحياناً أنه هو من يمسك بيدها ويساعدها على عبور الشارع. ولم تكن لويز تقسو عليه أبداً. لا يذكر أنّها غضبت منه يوماً. وهو واثق من أنّها لم ترفع عليه يدها قطّ. ورغم السنوات الطويلة التي قضاها معها، فذاكرته لا تحفظ عنها إلا صورة ملتبسة، غير واضحة المعالم. وهو غير متأكّد من التعرف إليها إن صادفها الآن في الشارع. لكنه لم ينسَ مداعبة وجنتها الرخوة الناعمة، ورائحة المسحوق الذي لم يكن يفارق وجهها، وملامسة وجهه الطفولي لسراويلها اللاصقة البنية الفاتحة، وطريقتها الغريبة في تقبيله، بحيث تستعمل أسنانها أحياناً، فتعضعضه كما لو أنّها تريد أن تشعره بشراسة حبّها له، وبرغبتها في امتلاكه بكامله. أجل، فهو ما زال يذكر كلّ هذا.

لم ينسَ أيضاً مواهبها في صنع الحلوى، والكعك الذي كانت تجلبه له إلى باب المدرسة، واستمتاعها بنهم الطفل الصغير في أكله. ما زال يذكر طعم صلصة الطماطم التي كانت تعدّ، وطريقتها في وضع الفلفل على شرائح اللحم التي لم تكن تمعن في شيّها، وقشدة الفُطْر، كلّها ذكريات كثيراً ما زال يستحضرها. إنّها ميثولوجيا مرتبطة بعالم الطفولة، بفترة سابقة عن المرحلة التي صار يقتات فيها على الوجبات المجمّدة أمام حاسوبه.

وهو يذكر أيضاً، أو بالأحرى يعتقد أنّه يذكر، كيف كانت تعامله بصبر لا ينفد، بخلاف أمّه، آن روفيي، التي كانت تفقد صوابها لمّا يشرع في البكاء ويتضرّع حتى يُتركَ باب غرفته مفتوحاً، أو يُلحّ على أن تُسرَد له حكاية أخرى أو يُجلب له كأس ماء، أو يُقسِم بأنّه رأى غولاً، أو أنّه ما زال يشعر بالجوع.

وقد باحت له لويز يوماً: «أنا أيضاً أخاف من النوم». لم تكن تتذمّر من كوابيسه، وكانت مستعدّة لقضاء ساعات تداعب فودَيه بأصابعها الطويلة التي تفوح برائحة الورد إلى أن يغلبه النوم. وأقنعت مشغِّلتها بأن تترك مصباح غرفته موقداً. «لا داعي لأن نشعره بالخوف».

أجل، أحدث انصرافها تمزّقاً في حياته. اشتاق إليها شوقاً شديداً، وكره الشابّة التي عوّضتها، وهي طالبة كانت تلحق به إلى المدرسة، وتتحدّث إليه بالإنجليزية، وتحاول أن «تحفّز فكره» على حدّ تعبير أمّه. ومثلما حقد على تلك المربية الشابة، حقد على لويز أيضاً لأنّها تخلّت عنه، ولم تفِ بالوعود المعسولة التي قطعت على نفسها، وحنثت بقسمها على أن تظلّ حنونة عليه ولا تعتني بغيره أبداً. لكنّها اختفت فجأة، ولم يجرؤ على السؤال عنها. لم يستطع أن يبكي هذه المرأة التي تخلّت عنه، لأنّه حدس، رغم صغر سنه، بأن هذا الحب يثير الضحك، وأنّهم سيسخرون منه، وأنّ أولئك الذين يظهرون له الشفقة، إنّما يتظاهرون بذلك.

* * *

طأطأ هيكتور رأسه، ولزم الصمت. كانت أمّه جالسة على مقعد بجواره، وضعت يدها على كتفه، وقالت: «حسناً يا عزيزي». لكن آن مضطربة، تنظر إلى رجال الشرطة نظرات تشي بأنّها ارتكبت ذنباً. مضت تبحث عن شيء تبوح به، عن خطأ ارتكبته منذ زمن بعيد. طول حياتها وهي هكذا، بريئة ومهووسة.

لم تجتز قطّ نقطة جمارك من دون أن تتعرّق. وذات يوم، رغم أنّها كانت حاملاً وغير مخمورة، حين نفخت في جهاز قياس الكحول، كانت مقتنعة بأنّهم سيوقفونها. جلست نقيبة الشرطة، وهي امرأة جميلة ذات شعر بنيّ كثيف، جمعته خلف رأسها في شكل ذيل حصان، إلى مكتبها قبالتهما، وسألتها كيف التقت بلويز، والأسباب التي دعتها إلى تشغيلها كمربّية. أجابت آن على الأسئلة بهدوء. لم تكن ترغب إلا في شيء واحد، هو إرضاء الشرطية، ومساعدتها على الإمساك بخيط من الخيوط، وخصوصاً معرفة التهمة الموجّهة إلى لويز.

إحدى صديقاتها هي التي أشارت عليها بتشغيل لويز. قالت عنها كلاماً طيّباً. ثمّ إنّها هي نفسها كانت راضية على مربّيتها. «لعلّك لاحظت أنّ هيكتور كان متعلّقاً بها أشدّ ما يكون التعلّق». فابتسمت النقيبة للمراهق. عادت خلف مكتبها، وفتحت ملفّاً وسألت:

«هل تذكرين السيدة ماسي التي اتصلت وسألتك عن لويز؟ مضى على ذلك أكثر من عام تقريباً، في شهر يناير؟

- السيدة ماسي؟

- نعم. قدّمت لويز للسيدة ماسي وزوجها رقمكما الهاتفي باعتباركما مشغّليها السابقين، فاتّصلت بكما السيدة ماسي لتعرف رأيكما فيها.

- صحيح، الآن تذكّرت. قلت لها إن لويز مربية استثنائية».

* * *

مضت ساعتان وهما جالسان في هذه الغرفة الباردة المُضجرة. المكتب مرتّب بعناية، والصور الفوتوغرافية فوقه موضوعة في مكانها المناسب. وعلى الجدار لا يوجد أيّ ملصق أو مذكّرة بحث. تتوقّف النقيبة بين الفينة والأخرى عن الكلام ثمّ تغادر مكتبها، فتتابعها آن وابنها من خلال الزجاج وهي تتحدّث في هاتفها المحمول، أو تهمس في أذن أحد زملائها أو تشرب قهوة. لم يكونا يرغبان في الكلام رغم أن ذلك قد يُسلّيهما. جلسا جنباً لجنب، وتحاشيا النظر إلى بعضهما بعضاً، وتظاهرا بنسيان أنّهما ليسا بمفردهما في الغرفة. كانا يتنهدان بصوت مسموع، ويقفان بين الفينة والأخرى. مضى هيكتور يتفحّص هاتفه بينما تشبّثت آن بحقيبتها الجلدية السوداء. شعرا بالملل، لكنّهما ظلا مهذبين وخائفين من أن تقرأ عليهما الشرطيّة أيّ علامة انزعاج. نال منهما الإرهاق، ولم يعودا ينتظران سوى أن يُطلق سراحهما.

طبعت النقيبة أوراقاً مدّتها إلى آن وهي تقول: «وقّعي هنا من فضلك».

أحنت على الورقة، ومن دون أن ترفع عينيها، سألت بصوت مرتبك:

«ماذا فعلت لويز؟ ماذا جرى؟

- متّهمة بقتل طفلين».

كانت تحيط بعيني النقيبة هالتان سوداوان، ويثقل نظرتها جيبان منتفخان أرجوانيان، يزيدانها -وهو أمر غريب- جمالاً.

* * *

خرج هيكتور إلى الشارع الذي غمرته شمس يونيو بحرارتها. ورأى فتيات جميلات يتجوّلن جعلنه يتوق إلى أن يكبر ويتحرّر ويصير رجلاً. فسنواته الثماني عشرة ترهقه، وهو يريد أن يتركها وراءه مثلما ترك أمّه ذاهلة ترتعش أمام مركز الشرطة. وتنبّه إلى أنّ ما شعر به قبل قليل أمام الشرطية لم يكن دهشة ولا ذهولاً، بل هو ارتياح عميق ومؤلم، أو لعلّه ابتهاج، كما لو أنّه كان يعلم منذ مدّة طويلة أنّ شيئاً ما يتهدّده، شيء شيطاني مبهم، تهديد لم يشعر به أحد سواه، حدسه بقلبِ وعَيْنَي الطفل الذي كانه. وقد شاء القدر أن يجنّبه هذا المكروه، ويُنْزله بغيره.

حين تفرست النقيبة وجهه الجامد قبل قليل وابتسمت، بدت كما لو أنها فهمت ذلك. ابتسمت له مثلما نبتسم لشخص نجا من كارثة محتومة.

طوال الليل ومريم تفكّر في هذا الهيكل الذي وُضع على طاولة المطبخ. فبمجرّد ما تغمض عينيها، يتمثل لها الهيكل هنا بجانبها في السرير.

شربت كأس النبيذ بجرعة واحدة وهي تضع يدها على الطاولة وتراقب بطرف عينها بقايا الدجاجة. كانت تشعر بالتقزّز من لمسها. ولابسها شعور غريب بأنّ شيئاً ما قد يقع، يبعث الحياة في الدجاجة، فتنقضّ على وجهها، وتعلَق بشعرها، وتدفعها إلى الحائط. دخّنت سيجارة عند نافذة الصالون، وعادت إلى المطبخ. ارتدت قفازين بلاستيكيين، ورمت بالهيكل في القمامة وأتبعته بالصحن والمنشفة الموضوعة بجانبه. ثمّ سارعت إلى إخراج الأكياس السوداء من الشقة.

* * *

آوت إلى فراشها، وجعل قلبها يخفق بشدّة حتّى إنّها شعرت بالاختناق. حاولت أن تنام، لكنّ النوم جفاها، فاتّصلت ببول وروت له، وهي تنتحب، حكاية الدجاجة. قال إنّها تهوّل من الأمر، وضحك من هذا السيناريو الجدير بفيلم من أفلام الرعب.

«لا داعي لأن تصنعي بنفسك كلّ هذا من أجل هيكل دجاجة!» وحاول إضحاكها، وتشكيكها في خطورة الوضع. أغلقت الخط في وجهه. حاول الاتصال بها، فلم تجب.

* * *

اشتدّ بها السهاد، وتزاحمت في ذهنها أفكار كلّها اتّهام وتأنيب. لعنت لويز في بادئ الأمر، وقالت في نفسها إنّها مجنونة، بل خطيرة، تحقد على مشغِّليها، وتضمر الرغبة في الانتقام منهم. ولامت نفسها على أنّها لم تخمّن مقدار العنف الذي تستطيع أن تأتيه، ولا سيما أنّها لاحظت في مواقف سابقة كيف يستبدّ بها الغضب. ما زالت تذكر كيف ثارت ثائرتها لمّا فقدت ميلا إحدى ستراتها في المدرسة، وكيف جعلت منها قضية. راحت تذكِّر مريم كلّ يوم بهذه السترة الزرقاء، وأقسمت أن تعثر عليها. وهكذا لاحقت المعلّمة والحارسة والعاملات بالمطعم المدرسي. وذات صباح وجدت مريمَ تُلبِس ميلا سترةً زرقاء، فسألتها بنبرة غاضبة:

«أعثرتِ عليها؟

- كلا، اشتريت سترة أخرى تشبهها».

تملّكت لويز نوبة غضب أفقدتها السيطرة على نفسها.

«ألمْ تَرَيْ كيف أرهقتُ نفسي في البحث عنها؟ ما معنى هذا؟ لا بأس في أن تُسرق الصبيّة؟ لا بأس في أن تُهمِل أغراضها بما أنّ ماما ستشتري سترة أخرى!».

* * *

ثمّ ما لبثت مريم أن تحوّلت إلى إدانة نفسها. قالت: «لعلّني بالغت كثيراً. ربّما قَصَدَتْ إلى أن تلمّح لي بأنّني مبذّرة ومسرفة. لا بدَّ أنّها شعرت بالإهانة حين رميت الدجاجة في القمامة، هي من تعيش وضعاً مادياً صعباً. فعوض مساعدتها، آذيتها».

نهضت عند الفجر متعبة لأنّها لم تنم تلك الليلة تقريباً. وما كادت تغادر فراشها حتّى لاحظت أن نور المطبخ موقد. خرجت من غرفتها فرأت لويز جالسة أمام النافذة الصغيرة المطلّة على الفناء. كانت تشرب الشاي وهي تحمل بكلتي يديها الفنجان الذي اشترته لها مريم في عيد ميلادها. بدا وجهها أشبه بشبح مرتعش في صباح كالح، بينما بهت لون شعرها وبشرتها. شعرت مريم كما لو أنّ لويز ما زالت تلبس بالأسلوب نفسه الذي درجت عليه في الأيام الأخيرة، القميص الأزرق وطوق كلودين نفسهما اللذين يثيران اشمئزازها. ودّت لو لم تكن مجبرة على التحدّث إليها. وتمنّت لو تستطيع طردها من حياتها بلا مشقّة، بحركة واحدة من يدها، بغمزة من عينها. لكنّ لويز منتصبة أمامها تبتسم.

سألتها بصوتها الواهن: «أأسكب لك قهوة؟ يبدو أنك متعبة». ومدّت مريم يدها لتمسك بالفنجان الساخن.

فكّرت في اليوم الطويل الذي ينتظرها، وفي الشخص الذي سترافع عنه أمام محكمة الجنايات. ووقفت في المطبخ تتأمّل ما في هذا الموقف من سخرية. هي من تثير إعجاب جميع من يعرفونها بنزعتها القتالية، ومن يشيد باسكال بشجاعتها في مواجهة

خصومها، ها هي الآن تشعر بغصّة أمام هذه المرأة الضئيلة الشقراء.

* * *

يحلم بعض المراهقين بقاعات سينمائية غاصّة، وملاعب كرة قدم وقاعات حفلات موسيقية ممتلئة عن آخرها. أمّا مريم، فلطالما حلمت بمحكمة الجنايات. حتّى لمّا كانت طالبة، كانت تحرص على حضور المحاكمات كلّما وجدت لذلك سبيلاً. ولم تكن أمّها تفهم كيف يمكن أن تولع بنت مثلها بحكايات الاغتصاب وجرائم زنا المحارم وجنايات القتل المقرفة. وعندما بدأت محاكمة ميشال فورنيري، ورغم أنّها كانت تُهيّئ لامتحان المحاماة، تابعتها باهتمام بالغ. استأجرت غرفة في مركز شارلوفيل-ميزيير، وراحت تنضمّ كلّ يوم إلى جماعات ربّات البيوت اللواتي يأتين لمشاهدة القاتل الرهيب. ونظراً إلى الجمهور الغفير الذي احتشد أمام المحكمة، ضُربت خيمة عظيمة بجوارها، وثُبِّتَت فيها شاشات ضخمة مكّنت الجمهور من متابعة أطوار المحاكمة. كانت مريم تنتحي جانباً ولا تتحدّث لأحد. ولمّا كانت النساء ذوات البشرة الضاربة إلى الحمرة والشعور القصيرة والأظافر المقلّمة يستقبلن السيارة التي تُقلّ المتّهم بالشتائم والبصاق، كانت تشعر بالضيق. هي المجبولة على المبادئ، المتشدّدة أحياناً، كانت تَنْشَدِهُ من مشهد الكراهية المُعلنة، ومن الدعوات المرفوعة للقصاص من المتّهم.

استقلّت مريم الميترو، ووصلت مبكراً أمام قصر العدالة.

دخّنت سيجارة، وسحبت طرف الحزام الصغير الأحمر المحيط بملفّها الضخم. فقد مضى أكثر من شهر وهي منهمكة في مساعدة باسكال في التحضير لهذه المحاكمة. أمّا الظنين فرجل في الرابعة والعشرين من عمره، متّهم بالانتقام من سيريلانكيَين رفقة ثلاثة من شركائه. ضربوا، وهم تحت تأثير الكحول والكوكايين، الطباخَيْن المُهاجرَين السرّيَين اللذين لا سوابق لهما، ضرباً مبرحاً إلى أن أسلم أحدهما الروح. ظلّوا يضربونهما إلى أن تنبّهوا إلى أنّ الضحيتين ليسا هما الرجلين المقصودين، وأنّ أحدهما إنّما شُبِّه لهم بغريمهم. وبذلك وجدوا أنفسهم في ورطة. لم يستطيعوا تبرير هذا الاعتداء مثلما لم يستطيعوا إنكار الجريمة، لأن إحدى كاميرات الحراسة سجّلت الواقعة.

خلال لقاء الرجل الأوّل مع محاميه، حكى لهم قصة مليئة بالكذب والمبالغات المفضوحة. وبما أنّه كان على وشك أن ينال حكماً بالمؤبّد، شعرت مريم بنوع من الانجذاب إلى قضيته. بذلتْ ما في وسعها لكي «تبقى بعيدة»، وهي العبارة التي يستعملها باسكال، والتي يتوقف عليها، في رأيه، نجاح الدفاع عن قضية من القضايا. حاولت بطريقة منهجية، واعتماداً على دلائل وحجج، أن تميّز بين الحقيقة والكذب في القضية. شرحت له بنبرة المُعلّمة، وبكلمات بسيطة مؤثّرة، أنّ الكذب لن يفيده في شيء، وأنه تقنية سيئة في الدفاع، وأنّ الشاب لن يخسر شيئاً إن قال الحقيقة.

اشترت للشاب بمناسبة المحاكمة قميصاً جديداً، ونصحته بأن ينسى النكات البائخة وتلك الابتسامة الخبيثة التي تظهره بمظهر المتبجّح. «ينبغي أن تُثبت أنّك أنت أيضاً ضحيّة».

وقد استغرقت مريم في العمل، ونسيت ليلتها المأهولة بالكوابيس. طلبت من الخبيرين الذين استدعتهما المحكمة أن يتحدّثا عن نفسيّة موكّلها. وقدم الضحيّة الذي نجا شهادته بمساعدة مترجم. ورغم أنّها كانت شهادة شاقة ومتعثّرة، فإنها أثّرت في الحاضرين. أما المتّهم، فظلّ مطأطأ الرأس، هادئ الأعصاب.

* * *

رُفِعتْ الجلسة، وبينما كان باسكال يتحدّث في الهاتف، جلست مريم ساهمة في الممرّ وقد تملّكها شعور بالخوف. لعلّها تعاملت مع قضيّة ديون لويز بكثير من الحدّة والتسرُّع. لم تتفحّص مراسلة الخزينة العامة احتراماً لحياتها الخاصة أو ربّما بسبب اللامبالاة. وراحت تلوم نفسها على عدم اطّلاعها على الوثائق. لذلك طلبت من لويز أن تأتيها بها. ادّعت لويز في بادئ الأمر أنّها نسيت، ووعدت بأن تتذكرها في اليوم الموالي. وحاولت مريم أن تعرف المزيد عن المسألة. سألتها عن جاك، وعن الديون التي تراكمت عليه منذ سنوات. واستفسرتها عمّا إذا كانت ستيفاني تعلم بمتاعبها المادية. طرحت مريم هذه الأسئلة بصوت هادئ ومتفهّم، على أنّها لم تجد من لويز سوى الصمت المطبق. قالت في نفسها: «لعلّه الحياء»، طريقة للحفاظ على الحدود بين عالمينا. وانتهى بها الأمر أن أعرضت عن فكرة المساعدة هذه. تهيّأ لها أنّ فضولها ينزل كضربات رهيبة على جسد لويز الواهن، هذا الجسد الذي يزداد ذبولاً وشحوباً وامّحاء. في هذا الممر

المعتّم شعرت مريم بأنّها لا تملك حولاً ولا قوّة، وأنّها منهكة أشدّ ما يكون الإنهاك.

اتّصل بها بول هذا الصباح، وبدا لطيفاً وودوداً، واعتذر لها عمّا بدر منه من سلوك بليد، وعن عدم أخذ كلامها على محمل الجدّ. وكرّر لها مراراً: «سنفعل ما يروقك. لا يمكن أن تستمرّ في العمل عندنا وهي تتصرّف بهذا النحو»، ثمّ أضاف بخلفية براغماتية: «لننتظر الصيف. بعد العودة من السفر سنشرح لها أنّنا لم نعد في حاجة إلى خدماتها».

أجابته مريم بصوت فاتر. وتذكّرت البهجة التي تملّكت الطفلين عند لقاء مربّيتهما بعد مرضها وغيابها هذه الأيام، كما تذكّرت النظرة الحزينة التي حدجتها بها لويز، ووجهها الشاحب. ما زالت اعتذاراتها المرتبكة تتردّد في مسامعها، وكذا خزيها من الإخلال بواجبها. قالت: «أعدك بألا يتكرّر هذا أبداً».

كان بالإمكان وضع حدٍّ لهذه العلاقة بكلّ بساطة طبعاً، لكنّ لويز تملك مفاتيح البيت، وتعرف كلّ شيء عنهم. تسلّلت إلى حياتهم عميقاً بحيث يبدو الآن من المستحيل إخراجها. سيطردونها فتعود. سيودّعونها فتطرق بابهم من جديد، وستدخل مع ذلك، ستتوعّدهم مثل عاشق مكلوم.

ستيفاني

كانت ستيفاني محظوظة للغاية. لمّا انتقلت إلى المستوى الإعدادي، اقترحت مشغّلة لويز، السيدة بيران، أن تسجّلها في ثانوية باريسية أفضل بكثير من تلك التي كانت ستوجّه إليها في بوبيني. أرادت المرأة أن تحسن لهذه المربية المسكينة التي ترهق نفسها في العمل، وتستحقّ المساعدة.

لكن ستيفاني لم تبرهن على جدارتها بهذا الكرم. لم تكد تمضي بضعة أسابيع على التحاقها بالصف النهائي من الإعدادية، حتّى بدأت المشاكل. كانت تشاغب خلال الدروس بحيث لا تتمالك نفسها من القهقهة، وتزعج التلاميذ، وتجيب ببذاءات على أسئلة الأساتذة. كلّ هذا جعل زملاءها يجدونها غريبة ومُرهقة. ولم تكن تُطلِع لويز عمّا يكتبه الأساتذة على دفتر المراسلات، وكذلك ما تتلقّاه من إنذارات واستدعاءات إلى مكتب المدير. ثمّ شرعت تتغيّب عن الدروس. تقضي فترة ما قبل الزوال في تدخين الحشيش وهي مستلقية على أحد المقاعد في حديقة صغيرة بالدائرة الخامسة عشرة.

وذات مساء استدعت السيدة بيران لويز، وعبّرت لها عن

خيبتها العميقة. فهي تشعر بأنّها خُدعت، وتحسّ بالخزي لأنّها فقدت، بسبب المربّية، ماء وجهها أمام المديرة التي أمضت وقتاً طويلاً في إقناعها، وأدّت لها خدمة نظير قبولها تسجيل ستيفاني في المؤسسة. ثمّ قالت إنّ ستيفاني ستمثل أمام مجلس الانضباط، وعلى لويز أن تحضر هي أيضاً. وختمت كلامها موضّحة بفظاظة: «هذا المجلس أشبه بمحكمة. عليك أن تدافعي عن ابنتك».

* * *

دخلت لويز وابنتها إلى القاعة على الساعة الثالثة بعد الزوال. وهي عبارة عن حجرة دائرية باردة، يتسلّل من نوافذها ذات الزجاج الأخضر والأزرق ضوء أشبه بضوء الكنائس. كان ثمّة حوالي عشرة أشخاص -أساتذة ومستشارون تربويون وممثلو أولياء التلاميذ- جالسين حول طاولة خشبية عريضة. تناوبوا على الكلمة: «ستيفاني غير منسجمة مع التلاميذ، وغير مهذّبة ووقحة»، «ليست فتاة مؤذية، لكنّها حين تشرع في الشغب، لا سبيل لإيقافها». واستغربوا كيف أنّ لويز لم تتدخّل رغم خطورة الوضع، ولم تحضر المواعيد التي ضربها لها الأساتذة. وقد اتّصلوا بها على هاتفها المحمول، بل تركوا لها رسائل، لكنّها ظلت كلّها بلا جواب.

تضرّعت إليهم أن يمنحوا ابنتها فرصة ثانية. شرحت لهم وهي تبكي كيف أنّها تعتني كثيراً بأطفالها، تعاقبهم حين لا ينصتون لكلامها، وتمنعهم من مشاهدة التلفاز أثناء إنجاز واجباتهم المدرسية. وقالت إنّها تملك مبادئ وتجربة كبيرة في

مجال تربية الأطفال. وأنّ السيدة بيران أخبرتها بأنّ الأمر يتعلق بمحكمة، وأنّهم سيحاكمونها لأنها أمّ سيئة.

كانت القاعة باردة، لذلك ظلّ الأساتذة بمعاطفهم. ردّدوا وهم يشيحون بوجوههم عنها: «نحن لا نشكّك في مجهوداتك أيّتها السيدة، ومتيقّنون من أنّك تبذلين ما في وسعك». وسألتها أستاذة الفرنسية، وهي امرأة نحيلة ولطيفة:

«كم لستيفاني من إخوة وأخوات؟».

فأجابت لويز:

«ليس لها إخوة ولا أخوات.

- لكنّني سمعتك تتحدّثين عن أطفالك، أليس كذلك؟

- نعم، أقصد الأطفال الذين أتكفّل بهم. من أعتني بهم يومياً. صدّقوني، فمشغّلتي راضية على تربيتي لأبنائها كلّ الرضا».

* * *

طلبوا منهما مغادرة القاعة لكي يتداولوا، فقامت لويز، وابتسمت لهم ابتسامة امرأة راقية. ولمّا خرجتا إلى الممرّ، قبالة ملاعب كرة السلة، واصلت ستيفاني ضحكها البليد. كانت بدينة وفارعة الطول ومضحكة بشعرها الذي سوّته فوق قنة رأسها كذيل حصان. وكانت تلبس بنطالاً ضيّقاً ملوّناً يزيد فخذيها ضخامة وبروزاً. ولم يكن ثمّة ما يشير إلى أنّ هذا الاجتماع المهيب أثّر فيها. كلّ ما في الأمر هو أنّه أشعرها بالملل. لم يتملّكها الخوف، بل راحت تبتسم بارتياح، كما لو أنّ تلك الأستاذات

اللواتي يرتدين قمصاناً صوفية وأوشحة عتيقة ما هنّ إلا ممثّلات بائخات.

ما كادت تغادر قاعة الاجتماع حتّى استعادت مزاجها الرائق، ومظهرها اللامبالي. ومضت تستفزّ زملاءها الخارجين من قاعات الدرس. تقفز وتوشوش بأسرار في أذن تلميذة خجولة، فتتمالك نفسها من أن تنفجر ضاحكة. ودّت لويز لو تضربها، لو تخضّها بكلّ ما أوتيت من قوّة. ودّت لو تدرك مقدار ما تتحمّل من جهد وخزي في سبيل تربيتها. ودّت لو تنزع من صدرها هذه اللامبالاة البلهاء، وتمزّق إرباً ما بقي من طفولتها.

وفي هذا الممرّ الصاخب، تماسكت لويز وبذلت أقصى ما تستطيع حتى لا تبدو عليها الرعشة، وشدّت بقوة على ذراع ابنتها الممتلئ حتى تجبرها على الصمت.

أطلّ الأستاذ الرئيس من الباب، وأومأ لهما بالعودة إلى القاعة قائلاً: «هلا دخلتما».

رغم أنّ المداولات لم تدم سوى عشر دقائق، لم تفهم لويز أنّ ذلك نذير شؤم.

وما إن جلست الأم وابنتها، حتّى أخذ الأستاذ الرئيس الكلمة. قال إنّ ستيفاني فتاة مشاغبة، وأنّهم فشلوا جميعاً في توجيهها. ورغم سعيهم الحثيث، واستعمالهم جميع الطرائق البيداغوجية، لم يفلحوا في تقويم سلوكها. لقد استنفدوا كلّ جهودهم مع أنّهم يتحمّلون مسؤولية صفّ بكامله، وهذه المسؤولية تقتضي ألا يتركوا هذه التلميذة تعبث بمصلحة الآخرين. ثمّ أضاف: «لعلّها ستكون أكثر انبساطاً في مؤسسة

قريبة من بيتها، وفي محيط يشبهها، يوفّر لها الموجّهات التي تناسبها. مفهوم؟».

كان ذلك في شهر مارس، وكان فصل الشتاء قد طال، حتّى خيل للناس أن البرد لن ينتهي. قالت لها مستشارة التوجيه مُطمئِنة: «إذا احتجتِ إلى مساعدة في الأمور الإدارية، هناك أناس لهذا الغرض». ولم تفهم لويز أن ستيفاني طُردت من المؤسسة.

في طريق العودة إلى البيت في الحافلة، لزمت الصمت. أمّا ستيفاني فراحت تقهقه وهي تنظر من خلال النافذة وقد حشرت سماعتين في أذنيها. شقّتا طريقهما في الشارع الكئيب الذي يقود إلى منزل جاك. مرّتا بمحاذاة السوق، فتلكّأت ستيفاني لتتأمّل المعروضات. وشعرت لويز بالغضب يملأ صدرها من طيش هذه المراهقة وأنانيتها. أمسكت بمرفقها، وسحبتها بقوة غير معهودة. تملّكها غيظ شديد، وودّت لو تنشب أظافرها في جلدها الرخو.

فتحت بوّابة المدخل الصغيرة، وما كادت تغلقها خلفهما حتّى انهالت على ستيفاني بالضرب. لكمتها على ظهرها بعنف في البداية حتّى سقطت أرضاً وتكوّمت وراحت تصرخ، لكنّ لويز استمرّت في الضرب بكلّ ما أوتيت من قوّة، وأوسعت وجهها صفعاً. ثمّ باعدت ما بين ذراعيها اللذين كانت تحمي بهما رأسها، وشدّت شعرها. ضربتها على عينيها، وشتمتها ولطمتها إلى أن سال دمها. ولمّا توقّفت عن الحركة، بصقت على وجهها.

سمع جاك الجلبة، فأطلّ من النافذة. ورغم أنّه رأى لويز تضرب ابنتها، لم يتدخّل لإنقاذها منها.

أفسد الصمت والخلافات مجرى الحياة في الشقة. تحاول مريم ألا تظهر شيئاً أمام الطفلين، لكن جفاءها للويز لم يكن خافياً. صارت تتحدّث إليها على مضض، وتعطيها تعليمات دقيقة، وتطبّق نصائح بول الذي لم يكن يتعب من تكرار: «هي مستخدمة وليست صديقة».

لم تعودا تشربان الشاي معاً في المطبخ، مريم جالسة إلى المائدة، ولويز مستندة على طاولة العمل. ولم تعد مريم توجّه لها كلماتها اللطيفة من قبيل: «أنت ملاك يا لويز» أو «لا نظير لك يا لويز». كما أنّها لم تعد تقترح عليها مساء الجمعة إنهاء ما تبقى من زجاجة النبيذ الموجودة في الثلاجة. تقول مريم: «لنترك الطفلين يشاهدان فيلماً، ولنجلس ونستمتع قليلاً». أمّا الآن، فما إن تفتح إحداهما الباب، حتّى تبادر الأخرى إلى إغلاقه خلفها. وصارت لقاءاتهما في الغرفة نفسها أقل فأقل، وأخذتا تتفنّنان في تجنّب بعضهما بعضاً.

ثمّ حلّ الربيع متألقاً على نحو غير متوقّع. وبدأ النهار يطول، والأشجار تُبرعم. وصحا الجو وأشرقت الشمس فتغيّرت

العادات، وعادت لويز إلى الخروج وارتياد الحدائق مع الطفلين. وذات مساء سألت المربّية مريم أن تسمح لها بالانصراف مبكّراً. وقالت موضّحة بصوت متهدّج: «لديّ موعد».

توجّهت إلى الحيّ الذي يشتغل فيه إيرفي، وذهبا معاً إلى السينما. كان بودّ إيرفي أن يشربا كأساً في أحد المقاهي، لكنّ لويز أصرّت على السينما. وقد أعجبها الفيلم كثيراً، وعادا لمشاهدته في الأسبوع اللاحق. أخذ إيرفي يغالب النعاس في قاعة العرض وهو جالس إلى جانبها.

وانتهى بها الأمر إلى قبول دعوته لشرب كأس في أحد المقاهي الكبيرة الموجودة في شارع من شوارع باريس الراقية. وقالت في نفسها إنّ إيرفي رجل سعيد، يتحدّث بفرح عن مشاريعه، عن العطلة التي يمكن أن يقضياها معاً في منطقة «فوج» الجبليّة، ويستحمان عاريين في البحيرات، وينامان في شاليه جبلي يعرف صاحبه، ويقضيان وقتهما في الإنصات للموسيقى. سيُطلعها على مجموعة الأسطوانات التي بحوزته، وهو واثق من أنّها سرعان ما ستتعلّق بها، ولا تستطيع الاستغناء عنها. ثمّ إنّ إيرفي يرغب في نيل معاشه مبكّراً، وهو لا يتصوّر نفسه يستمتع بسنوات التقاعد هذه بمفرده. فقد مضى على طلاقه خمس عشرة سنة الآن، وهو لم ينجب، والوحدة تُرهقه.

استعمل إيرفي كلّ ما لديه من حِيَل لاستدراج لويز إلى شقّته. وذات مساء قبلت مرافقته. انتظرها في مقهى بارادي المواجه للعمارة التي يقطنها آل ماسي. ثمّ استقلا الميترو معاً، ووضع

إيرفي يده الضاربة للحمرة على ركبة لويز. مضت تنصت إليه وعيناها شاخصتان تنظران إلى هذه اليد التي استقرت على جسدها، هذه اليد التي بدأت تزحف ولن تنتهي، ستطمع في المزيد. هذه اليد المتكتّمة التي تجتهد في إخفاء نهمها.

ضاجعها على نحو مبتذل، اعتلاها ومضى يغمغم، ولم تدرِ هي أكان ذلك من اللذة أم بسبب عظامها الحادة. وقد كان من القصر بحيث شعرت بكاحليه يلامسان كاحليها. كاحلان ثخينان، ورجلان يكسوهما الشعر. وبدا لها هذا الاحتكاك غريباً وغير مناسب شأنه في ذلك شأن القضيب الذي يتحرك في داخلها. أمّا إيرفي، فراح يضاجعها بعنف أقرب إلى العِقاب. وما كاد ينتهي حتى شعر بالارتياح، كما لو أنّه تخفّف من عبء كان يثقل كاهله، وبدا أكثر تلقائية.

* * *

هنا في هذه الشقة ببورت دي سانت-وين، وفي سرير هذا الرجل النائم إلى جوارها، خطرت في بال لويز فكرة الرضيع، رضيع بالغ الصغر، وُلِد لِتوّه، ما زالت تفوح منه رائحة الحياة الدَّفِئة التي بالكاد بدأت. رضيع يرفل في الحب، تلبسه ثياباً فضفاضة بألوان فاتحة، ينتقل من ذراعيها إلى ذراعي مريم ومنها إلى ذراعي بول. رضيع يقرّب بينهم، ويصلهم برباط من الحنان العارم، فيمحو الخلافات والصراعات، ويعيد المياه إلى مجاريها. هذا الرضيع، ستهدهده على ركبتيها لساعات وساعات، في غرفة يضيئها مصباح خافت تدور حوله مراكبُ وجزُرٌ.

ستداعب رأسه الأمرد، وستُدخِل بِلُطف إصبعها في فمه، فيكفّ عن الصراخ، ويروح يرضع بلثته المنتفخة ظفرها الملمّع.

* * *

وفي اليوم الموالي، رتّبت سرير بول ومريم بعناية أكثر من المعتاد. مرّرت يديها على الغطاء، وفتّشت عن دليل يثبت جماعهما، وعن أثر الطفل الذي غدت الآن واثقة من قدومه. وسألت ميلا عمّا إذا كانت ترغب في أخ آخر أو أخت. «ما رأيك في رضيع نرعاه معاً؟»، وودّت لويز لو أنّ الطفلة تحدِّث أمّها في الأمر، لو تهمس لها بالفكرة، فتجد طريقها إليها، وتفرض نفسها عليها. وذات يوم سألت الطفلة الصغيرة أمّها عمّا إذا كانت تحمل في بطنها طفلاً، وهو ما أبهج لويز. فردّت مريم ضاحكة: «كلا، أموت ولا أقبل بهذا».

استهجنت لويز هذا الجواب، ولم تفهم سبب ضحك مريم واستخفافها بهذا الأمر. لا بدَّ أنّها إنّما تقول هذا لتدرأ عنها النّحس. تتظاهر باللامبالاة، لكنها تعتقد عكس ذلك. فآدم سيلتحق هو أيضاً بالمدرسة شهر سبتمبر المقبل، وسيفرغ البيت، ومن ثمّة لا يعود لوجود لويز في البيت من داعٍ. ينبغي إذاً أن يأتي طفل آخر يشغل نهارات الشتاء الطويلة.

بما أنّ الشقّة صغيرة، تسمع لويز كلّ الأحاديث الدائرة من دون أن تتعمّد ذلك، وهو ما مكّنها من الاطلاع على كلّ الخبايا. عدا أن مريم صارت في الآونة الأخيرة تخفض صوتها، وتغلق

عليها الباب حين تتحدّث في الهاتف، وتكلّم بول همساً. يبدوان كما لو أنّهما يخفيان عنها أسراراً.

أخبرت لويز وفاء بهذا الطفل الذي سيولد، وبالفرحة التي سيدخلها على قلبها، وبالعمل الإضافي الذي سيخلقه لها. «لن يستطيعوا الاستغناء عنّي بعد أن يكون لديهم ثلاثة أطفال». تتأبُ لويز لحظات من الانتشاء. يساورها حدس عابر وهلامي بحياة أوسع، وفضاءات أرحب، وحبّ أصفى، وشهيّة أكثر شراهة. وتفكّر في الصيف القريب، وقضاء العطلة مع الأسرة. تتخيّل رائحة الأرض المحروثة وأنوية الزيتون المتعفّنة على جنبات الطرق، وظلال الأشجار المثمرة تحت ضوء القمر، من دون أن يتحتّم عليها حمل شيء أو تغطيته أو إخفاءه.

وعادت إلى الطبخ من جديد، هي من صارت أطباقها في الأيام الأخيرة غير مستساغة، أخذت تحضّر لمريم أرزّاً بالحليب والقرفة، وأحسية متبّلة، وأنواعاً مختلفة من الأطعمة المعروفة بتقوية الخصوبة. وصارت تراقب بانتباه شديد جسد مشغِّلتها. تتفرّس صفاء بشرتها، وحجم ثدييها، ولمعان شعرها، وكلّ العلامات التي تظن أنها تعلن عن الحمل.

وأخذت تولي أهمية بالغة للغسيل. تُفرغ كعادتها آلة الغسيل، فتنشر كلسونات بول، وتحرص على أن تفرك الجانب الأسفل الناعم منها بيديها، وتحت صنبور الماء البارد في المطبخ، تغسل سراويل مريم الداخلية، وحمّالات صدرها ذات حواشي الدانتيلا وهي تتلو بعض الابتهالات.

لكن لويز لا تلاقي غير الخيبة. فهي ليست في حاجة إلى

تمزيق أكياس القمامة وتفحّص محتوياتها. لا شيء يغيب عنها. رأت اللطخة على سروال مريم المرمي أسفل السرير. ولاحظت على أرضية الحمام هذا الصباح قطرة دم صغيرة. قطرة من الصغر بحيث أنّ مريم لم تكلّف نفسها تنظيفها، فجفّت على البلاط ذي اللون الأخضر والأبيض.

وهي تعثر على الدم باستمرار، لأنها تعرف رائحته، ولا يمكن لمريم أن تخفيه عنها. هذا الدم الذي يشير إلى أن طفلاً يموت كلّ شهر.

وحلّت الكآبة محلّ الابتهاج. وبدأ العالم يبدو كما لو أنّه يضيق ويتقلّص، ويسحق بثقله جسدها. أوصد بول ومريم في وجهها أبواباً ودّت لو تُكسِّرها. ولم تعد ترغب إلا في شيء واحد: أن تعيش معهم، وتجد مكاناً بينهم، وتحفر عندهم وكراً دافئاً تأوي إليه. وهي تشعر بنفسها أحياناً على وشك أن تطالب بنصيبها من هذه الشقّة، لكن همّتها تفتُر، ويتملّكها الحزن، وتحسّ بالخزي من أنّها فكرت في أمر كهذا.

وبينما كانت عائدة إلى بيتها على الساعة الثامنة مساء، وجدت مالك الشقّة بيرتران أليزار ينتظرها في الممرّ. قام واقفاً تحت المصباح الذي تعطّل منذ فترة طويلة، وكاد يرتمي عليها وهو يقول: «ها أنت تعودين أخيراً!»، وصوَّب شاشة هاتفه المحمول ليضيء وجهها، فرفعت يدها لتحمي عينيها. كان يتحدّث بصوت لطيف وقد كاد صدره يلامسها، ويده تمسك بيدها ووشوش في أذنها: «كنت في انتظارك. جئتك مراراً، بعد الظهر وفي المساء، لكنّي لا أجدك». حدّق فيها بعينيه الرَّمَصاوين اللتين تساقطت أهدابهما، وراح يحكّهما بعد أن رفع نظارتين شدّهما بخيط حول رأسه.

فتحت باب الشقّة الصغيرة وتركته يدخل. كان بيرتران أليزار يرتدي سروالاً بنّياً فاتحاً فضفاضاً، ولمّا استدار لاحظت أنّه أخطأ عينين من عيون شدّ الحزام، فبدت خاصرته وردفاه عاريين من خلال الفجوة الفاغرة بين سرواله وجذعه. يخيّل لمن يراه على هذه الحال مثل عجوز محدودب مهزول سرق ملابس أحد العمالقة. كلّ شيء فيه يوحي بأنّه غير مؤذٍ، رأسه الأصلع وخدّاه المجعّدان المكسوان ببقع النمش وكتفاه المرتعدان، باستثناء يديه الجافّتين الضخمتين، بأظافرهما السميكة الشبيهة بالمناجل. يدان أشبه بيدي جزار، راح يفركهما ليبعث فيهما شيئاً من الدفء.

دخل إلى الشقة بصمت متثاقلاً، كما لو أنّه يستكشف المكان لأوّل مرّة. تفحّص الجدران، وجسّ كلّ ما وصلت إليه يده الخشنة، ولمس غلاف الأريكة، وتحسّس سطح مائدة الفورميكا. وبدت له الشقّة كما لو أنّها فارغة وغير مسكونة. ودّ لو يعبّر للمستأجرة عن بعض ملاحظاته. يقول لها إنّها لا تعتني بالبيت وتتأخّر في دفع الإيجار. لكنّ الشقة ما زالت على حالها كما كانت يوم أتى بلويز لتزورها أوّل مرّة.

مضى يحدّق في لويز وينتظر وهو واقف متّكئاً بيده على مسند أحد المقاعد. تفرّسها بعينيه الصفراوين الكليلتين. كان ينتظرها أن تتكلّم، أن تفتّش في حقيبتها وتخرج مبلغ الإيجار، أن تقوم بالخطوة الأولى وتعتذر عن تقاعسها في الإجابة على الرسائل التي بعث لها بها. لكنّ لويز لزمت الصمت. بقيت واقفة أمام الباب مثل كلبة صغيرة مرعوبة يمكن أن تعض كلّ من يقترب منها.

أشار أليزار بإصبعه الضخم إلى الصناديق الموضوعة عند

مدخل الشقّة وقال: «أرى أنّك بدأت تحزمين أمتعتك، أحسنت صُنعاً. فالمستأجر الجديد سيحلّ بالبيت بعد شهر».

تقدّم ببضع خطوات، ودفع ببطء قمرة الاستحمام، فبدا له حوض الحمام كما لو أنّه غار قليلاً في الأرضية بعد أن تعفّن الخشب الذي يسنده. قرفص العجوز وقال: «ماذا جرى هنا؟» وشرع يغمغم، ونزع سترته ووضعها على الأرض ثمّ ارتدى نظارتيه. أمّا لويز فظلت واقفة خلفه.

التفت إليها أليزار وسأل من جديد وبصوت عالٍ:

«سألتك ماذا جرى هنا!».

انخلعت من مكانها.

«لا أدري. وقع هذا منذ بضعة أيام. تجهيزات الحمام تقادمت على ما أظنّ.

- هذا غير صحيح، فأنا ثبتّ قمرة الاستحمام بنفسي. عليك أن تعتبري نفسك محظوظة. في ذلك الوقت كان الناس يستحمّون على البلاط. أنا الوحيد الذي ثبتّ رشاشاً في الشقّة.

- وقد انهار.

- من الواضح أنّه انهار بسبب انعدام الصيانة. لا تظنّي أنّ الإصلاح سيكون على حسابي. فأنت من تركت أرضية الحمام تتعفّن!».

حدّقت فيه لويز، ووجد أليزار صعوبة في تأويل هذه النظرة القاسية وهذا الصمت.

قرفص من جديد وجبينه يتصبب عرقاً، وقال: «لماذا لم تتّصلي بي؟ منذ متى وأنت تعيشين على هذه الحال؟».

لم تجبهُ لويز بأنّ هذه الشقّة الصغيرة ليست سوى جحر قذِر، مجرّد قوس فتَحتْه لتستُر فيه إرهاقها، وأنّها تعيش في مكان آخر، وتستحمّ كلّ يوم في شقّة مريم وبول. تتعرّى في غرفتهما، وتضع ملابسها بعناية على سرير الزوجين، ثمّ تَعبُر الصالون عارية لتصل إلى الحمام. تمرّ أمام آدم الجالس على الأرض. تنظر إلى الطفل وهو مستغرق في مناغاة نفسه وهي واثقة من أنّه لن يفضح سرّها. لن يقول شيئاً عن جسد لويز، عن بياضها الشبيه ببياض التماثيل، وثدييها اللؤلؤيَين اللذين لم يتعرّضا للشمس إلا نادراً. ولا تغلق على نفسها باب الحمام لكي تتمكّن من سماع الطفل. تفتح الماء، وتظلّ واقفة تحت دفق الماء الحارق المندفع من الرشاش بلا حراك أطول ما تستطيع. ثمّ لا ترتدي ملابسها. تحشر أصابعها في مستحضرات التجميل الخاصة بمريم، وتدلك بطّتي ساقيها وفخذيها وذراعيها. وتتجوّل في الشقة حافية وقد أحاطت جسدها بمنشفة بيضاء، منشفتها الخاصة التي تخفيها كلّ يوم بين المناشف في إحدى الخزانات.

* * *

«رغم أنّكِ لاحظت المشكلة، لم تحاولي إصلاحها. لعلّك تفضّلين العيش في البؤس مثل الغجر!».

لقد احتفظ بهذه الشقة الصغيرة الواقعة في الضاحية لدواعٍ عاطفية. وراح وهو مقرفص أمام قمرة الاستحمام يهوّل من الأمر ويضخّمه، ويرفع يده إلى جبينه، يتحسّس بطرف أصابعه طبقة الطحالب السوداء، كما لو أنّه هو الوحيد من يستطيع تقدير مدى

خطورة الوضع. وأخذ يردّد بصوت عالٍ المبلغ الذي سيكلّفه الإصلاح. «سيكلّف ثمانمئة يورو على الأقل». ومضى يستعرض معرفته بفنون الترميم مستعملاً مفردات تقنية، زاعماً بأنّ إصلاح هذه الكارثة سيستغرق أكثر من خمسة عشر يوماً، محاولاً ترهيب المرأة الضئيلة التي لاذت بالصمت.

وقال في نفسه: «يمكنها أن تدفع من مبلغ الضمان». ذلك أنّه فرض عليها حين استأجرت منه الشقة أن تدفع معادل شهرين من الإيجار على سبيل الضمان. قال: «لم يعد المرء يستطيع الوثوق بالناس. أمر مؤسف، لكن هذه هي الحقيقة». وهو لا يذكر أنّه أعاد الضمان لمستأجر يوماً. فمهما كان حرصه وحذره، يجتهد أليزار دائماً في البحث عن ذريعة ليحتفظ بالمبلغ.

يملك العجوز حسّاً استثمارياً متّقداً. قضى ثلاثين سنة وهو يسوق شاحنة كبيرة بين فرنسا وبولونيا. كان ينام في قمرة القيادة، يعيش على القليل التافه قاهِراً شهواته، ومقاوماً أبسط النزوات، بل كان يشتغل بلا كلل حتّى خارج أوقات عمله، معزّياً نفسه بادّخار المال الذي لم ينفقه، حالماً بأن يصير ثرياً في يوم من الأيام. وراح يشتري شققاً صغيرة في الضاحية الباريسية، يرمّمها ثمّ يؤجّرها بأثمنة باهظة لأناس ألجأتهم الحاجة إليه. وعند نهاية كلّ شهر، يطوف على عقاراته لجمع الإيجار. يُطلّ من خلال فتحات الأبواب، وأحياناً يفرض نفسه ويتسلّل إلى الداخل لكي «يُلقي نظرة» و«يتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام». يطرح أسئلة متطفّلة يجيب عنها المستأجرون على مضض، وهم يبتهلون من أجل أن ينصرف، أن يغادر مطبخهم، ويُخرج أنفه من خزانتهم.

لكنّه يظل منتصباً هناك إلى أن يقدّموا له مشروباً يقبلُهُ بلا تردّد، ويروح يرتشفه على مهل وهو يحدّثهم عن الآلام التي تمزّق ظهره. «سياقة شاحنة لثلاثين عاماً تكسّر عظامك»، ويختلق من هذه الشكوى موضوعاً للحديث.

وهو يفضل الإيجار للنساء، لأنّهن أعنى بالشقق من الرجال في نظره، ولا يتسبّبن في المشاكل. يُعطي الأولوية للطالبات والأمّهات العازبات والمطلّقات، لكنّه لا يقبل العجائز اللواتي يشغلن الشقق ويتوقّفن عن الأداء لا لشيء إلا لأنّ القانون مُنحاز إليهنّ. ثمّ جاءت لويز، بابتسامتها الحزينة، وشعرها الأشقر، ومظهرها المرتبك. نصحته بها مستأجرة سابقة، ممرّضة بمستشفى هنري مودور لم تكن تتأخّر عن أداء الإيجار.

ليته لم ينسق وراء عواطفه! فلويز هذه ليس لها أحد. لا أولاد، ولا زوج. وقفت أمامه وهي تمسك في يدها حزمة أوراق نقدية، بمظهرها الرائق الأنيق، وقميصها ذي الطوق المميّز، وراحت تحدّق فيه بلطف وامتنان. ثمّ همست: «كنت مريضة». وفي تلك الأثناء تحرّق شوقاً لكي يستجوبها ويسألها عمّا كانت تفعل بعد وفاة زوجها، ومن أين جاءت، والعذاب الذي تحمّلت. لكنّها لم تُمهله. قالت: «لقد عثرت على عمل لدى عائلة رائعة في باريس»، وتوقّفت المحادثة ها هنا.

* * *

يرغب بيرتران أليزار الآن في التخلّص من هذه المستأجرة المتكتّمة المُهمِلة. فهو لم يعد مغفّلاً، ولم يعد يطيق ذرائعها،

وأساليبها المراوغة، وتأخّرها عن أداء الإيجار. هو لا يعرف سبب القشعريرة التي تصيبه من مظهرها. شيء ما فيها يقزّزه، ابتسامتها المُلغزة، وهذا الماكياج المبالغ فيه، وطريقتها المتعالية والمتجهمة في النظر إليه. لم تردّ أبداً على ابتساماته، ولم تبذل أيّ جهد لتلاحظ سترته الجديدة، وتصفيفة شعره الأحمر.

توجّه أليزار نحو حوض المطبخ وغسل يديه وقال: «سأعود بعد ثمانية أيّام، وسأُحضِر المواد اللازمة والعامل. ينبغي أن أجدك قد انتهيت من حزم أمتعتك».

عادت لويز إلى إخراج الطفلين للنزهة. يقضون فترة ما بعد الظهر في الحديقة التي شُذِّبت أشجارها واخضرّ عشبها من جديد وفتحت أحضانها لاستقبال طلبة الحي. وبدا الأطفال حول الأراجيح سعداء بتجديد اللقاء فيما بينهم حتّى إن كانوا يجهلون أسماء بعضهم بعضاً في معظم الأحيان. فلا شيء أهمّ لديهم من هذا اللباس التنكّري أو تلك اللعبة أو هذه العربة الصغيرة التي لَفّت فيها طفلة صغيرة رضيعاً.

لم تنسج لويز صداقة مع أحد في الحي باستثناء وفاء. ومن ثمّة فهي لا تكلّم أحداً، وتكتفي بابتسامات مهذّبة، وبإشارات متكتّمة. لمّا بدأت تتردّد على الحديقة، ظلّت المربّيات الأخريات يعاملنها بتحفّظ، ولا سيما أنّها تتشبّه بالحاضنات الإنجليزيات في التأنُّق والحذلقة. ولعلّ هذا هو ما جعل باقي المربّيات يعبن عليها عجرفتها وتقليدها المضحك لأساليب نساء الطبقات الراقية. كما أنّها لا تتورّع عن لعب دور الواعظة، فتنبّه المربيات اللواتي ينشغلن بالحديث في هواتفهن، وينسين الإمساك بيد طفل خلال عبور الشارع، بل حدث أن وبّخت على نحو استعراضي أطفالاً

سهت عنهم عيون مربياتهم فراحوا يسرقون لعب أطفال آخرين، أو يسقطون من جدار قصير.

وبمرور الشهور، لا تجد المربّيات اللواتي يقضين وقتاً طويلاً في الحديقة بدّاً من أن يتعارفن، ويصرن كما لو أنهنّ زميلات في مكتب كبير بلا سقف، في الهواء الطلق. يلتقين كلّ يوم بعد أوقات المدرسة، ويتصادفن في المتاجر أو في عيادات أطباء الأطفال أو حول الأرجوحة الدوارة في ساحة الحي. وقد حفظت لويز أسماء بعضهنّ أو عرفت بلدانهنّ الأصلية، والعمارة التي تشتغل فيها كلّ واحدة منهنّ، ومهن مشغّليهن. تجلس تحت شجرة الورد التي بدأت ورودها تتفتح، وتسترق السمع للمكالمات الهاتفية الطويلة التي تجريها هؤلاء النسوة وهنّ يقضمن قطع بسكويت بالشوكولا.

وحول المزلقة وصندوق الرمل، تتردّد نبرات لغات الباوليه والدويلا والعربية والهندية، وكلمات رقيقة بالفلبينية والروسية. لغات من مختلف أصقاع العالم تلوّث هذر الأطفال الذين يطلب منهم آباؤهم بشغف أن يردّدوا النتف التي تعلموها. «اسمع ماذا قال، أؤكد لك أنّه يتحدّث العربية». ثمّ مع مرور السنوات، ينسى الأطفال تلك الكلمات، وبينما يمّحي صوت المربّية ووجهها، وتختفي من حياتهم، لا يعود أحد في البيت يذكر كيف تقال «ماما» باللانغالا، أو أسماء تلك الأطباق الطريفة التي كانت تعدّها المربية اللطيفة. «هل تذكر ماذا يسمّي روذق اللحم ذاك؟».

يدور هذا الحشد من النساء حول الأطفال الذين يتشابهون جميعاً، ويرتدون في الغالب نفس الملابس التي اشترتها الأمهات من ماركات عالمية، وحرصن على كتابة أسماء أبنائهم عليها حتى

لا تخلتط بملابس الآخرين وتضيع. بينهنّ شابات محجّبات في أثواب سوداء، لا بدّ أنهنّ أشدّ حفاظاً على المواعيد، ألطف وأنظف من الأخريات. وهناك من يُغيّرن الباروكة كلّ أسبوع، وهناك الفلبينيات اللواتي يتوسّلن للأطفال بالإنجليزية لكي لا يقفزوا على البِرَك. ثمّ هناك القديمات، اللواتي يعرفن الحي منذ سنوات، ويتحدّثن إلى مديرة المدرسة بلا كُلفة، وأولئك اللواتي يصادِفن في الحي مراهقين ربّينَهم لمّا كانوا صغاراً، فيُقنعن أنفسهنّ بأنّهم تعرّفوا إليهنّ، لكن الخجل هو الذي منعهم من تحيّتهن. وهناك الجديدات اللواتي يشتغلن لبضعة أشهر ثمّ يختفين فجأة من غير أن يودّعن أحداً، تاركات خلفهنّ إشاعات وشكوكاً.

أمّا لويز فلا تعرف عنها المربّيات شيئاً تقريباً. حتّى وفاء التي تخالطها بدت متكتّمة عن حياتها. حاولن جاهدات استفسارها عنها، لكن بلا جدوى. فهذه المربية البيضاء تثير حيرتهنّ. كثيراً ما يتحدّث عنها الآباء كقدوة، مشيدين بمواهبها في الطبخ، وتفانيها في الخدمة، ملمّحين إلى الثقة التي تضعها فيها مريم. وهنّ يتساءلن عمّن تكون هذه المرأة النحيلة التي يُضرب بها المثل، وأين اشتغلت قبل مجيئها إلى هنا؟ أفي حيّ من أحياء باريس؟ أهي متزوجة؟ ألها أطفال تعود إليهم مساءً بعد فراغها من العمل؟ ومشغّلوها، أيحسنون معاملتها؟

لكنّ لويز لا تجيب، والمربّيات يفهمن هذا الصمت. فلديهنّ جميعاً أسرار مكنونة، وذكريات رهيبة عمّا عانينه من إذلال وإهانات، يحرصن على إخفائها. ذكريات أصوات بالكاد تسمع في الطرف الآخر من الهاتف، ومحادثاتٌ متقطّعة، وأناس ماتوا

ولن ترينهم أبداً، ونقود تُطلب بإلحاح يومياً لعلاج طفل مريض لم يعد يذكرهنّ ونسي صوتهن. ولويز تعلم أنّ بعضهن سرقن أشياء تافهة لا قيمة لها، كما لو أنهنّ يقتطعن ضريبة على سعادة الآخرين. كما أنّ منهن من يخفين أسماءهن الحقيقية. ولويز واثقة من أنّهن لا يحقدن عليها بسبب تكتّمها. كلّ ما في الأمر أنهنّ يلزمن الحذر.

في الحديقة، لا تتحدّث المربّيات عن أنفسهنّ، وحتّى إن فعلن يكون ذلك تمليحاً حتّى لا تترقرق الدموع في العيون. ففي طباع المشغّلين وتصرّفاتهم ما يكفي من الإثارة لتغذية أحاديثهنّ. فمشغّلا وفاء بخيلان، ومشغّلا ألبا شكّاكان على نحو مريع، وأمّ الصغيرة جول مدمنة على الكحول. وهنّ يشتكين من أنّ الآباء يتأثّرون بما يحكي لهم أطفالهم الذين قلّما يرونهم، والذين لا يرفضون لهم طلباً. تقول المرأة الفلبينية السمراء التي تسمّى روزاليا، وهي تدخّن السيجارة تلو الأخرى: «باغتتني المشغّلة في الشارع مؤخّراً. أعلم أنّها تراقبني».

وبينما يجري الأطفال على الأرض المكسوّة بالحصى، ويحفرون في صندوق الرمل الذي خلّصته البلدية من الفئران مؤخّراً، تتحوّل الحديقة بالنسبة إلى النسوة إلى مكتب تشغيل ومقرّ نقابة ومركز شكايات وإعلانات صغيرة. فهنا تُذاع عروض العمل، وتُحكى النزاعات بين المشغِّلين والمشغَّلين. تقصد النسوة ليدي، التي نصّبت نفسها رئيسة عليهنّ. وليدي هذه امرأة فارعة الطول من ساحل العاج، في الخمسينيات من عمرها، تلبس معاطف فرو صناعي، وترسم فوق عينيها حاجبين دقيقين بالقلم الأحمر.

وعند السادسة مساء، تجتاح المكان جماعات من الشباب. أشخاص معروفون يأتون من شارع دانكيرك الواقع في محطّة الشمال. يتركون خلفهم في الحديقة غلايين مكسورة، ويتبوّلون على العشب، ويثيرون الشجارات. لذلك ما إن تراهم المربّيات، حتّى يجمعن بسرعة المعاطف المرميّة، والجرّافات الصغيرة المكسوّة بالرمل، ثمّ يُعلّقن حقائبهن اليدوية على العربات، ويُخلين المكان.

ولا يكاد موكبهنّ يتجاوز باب الحديقة الحديدي حتّى يتفرّقن، فيتّجه بعضهنّ صوب مونمارت أو نوتردام دو لوريت، بينما تقصد أخريات غران بولفار، مثل لويز وليدي. تمشيان جنباً لجنب وقد أمسكت لويز بيدي ميلا وآدم. فإذا ما ضاق الرصيف، أفسحت الطريق لليدي لكي تتقدّمها وهي عاكفة على العربة التي ينام فيها الرضيع.

تحكي لها ليدي: «جاءتني امرأة شابّة حبلى بتوأمين أمس. ستلد في شهر أغسطس».

لا أحد يجهل أنّ بعض الأمّهات الشاطرات يأتين إلى هذا المكان للتسوق مثلما كان الناس يذهبون في السابق إلى المرفأ أو يتوغّلون في بعض الأزقّة للبحث عن خادمة أو حمّال. يطفن بين المقاعد، ويراقبن المربّيات، ويتفحّصن وجوه الأطفال حين يعودون إلى أحضان هؤلاء النسوة لكي يمسحن أنوفهم بحركة مفاجئة أو بحثاً عن مواساة بعد سقطة مؤلمة. وفي بعض الأحيان، لا يتردّدن في طرح بعض الأسئلة.

ثمّ أضافت ليدي: «هي تقطن بشارع الشهداء وستلِد في نهاية

شهر أغسطس، وقد فكرت فيك حين علمت أنّها تبحث عن مربّية».

رفعت نحوها لويز عينين أشبه بعيني دمية. تردَّدَ كلام ليدي في جمجمتها ككتلة واحدة بلا معنى. أحنت على آدم وحملته بين ذراعيها، ثمّ أمسكت ميلا من تحت إبطها وانطلقت تاركة ليدي تُردِّد ما قالت بصوت مرتفع ظانّة أنّ لويز لم تسمعها بسبب انشغالها بالطفلين.

«ما رأيك؟ أأسلّمها رقم هاتفك؟».

لم تجب لويز بل اندفعت من دون أن تنبس. وبينما همّت بأنّ تمرّ أمام ليدي، قلبت عربة الرضيع بحركة مباغتة، فاستيقظ مرعوباً، وراح يصرخ.

صاحت بها ليدي التي لاحظت أنّ كل مشترياتها تناثرت على الأرض، وسقط بعضها في المجرى: «ماذا دهاكِ؟ ألا تبصرين؟». لكن لويز كانت قد ابتعدت. وتحلّق الناس حول الخادمة الأفريقية، ومضوا يجمعون حبّات المندرينة المتدحرجة على الرصيف، ورموا في القمامة الخبزة المبلّلة، وراحوا يتفحّصون الرضيع حتّى اطمأنوا على أنّه لم يصب -لحسن الحظ- بمكروه.

ستحكي ليدي هذه القصة الغريبة مراراً وستُقسِم أنّ «الحادث لم يقع صدفة، بل قلبت لويز العربة عمداً».

صارت لويز مهووسة بالجنين حتى أنّه ملك عليها فكرها واستحوذ على عقلها. سيحلّ هذا الطفل كل مشاكلها. يكفُّ عنها الألسنة النمّامة في الحديقة، ويردع مالك الشقة البغيض، ويصون منزلتها داخل مملكتها. واقتنعت بأنّ ميلا وآدم لا يتركان لمريم وبول الوقت للاهتمام بنفسيهما، وهما بذلك يعرقلان ميلاده. وإذا كان الزوجان لا يلتقيان، فالطفلان هما السبب. نزواتهما ترهق الوالدين، ونوم آدم الخفيف يفسد عليهما لحظاتهما الحميمية. لو لم يكن يضنيهما ببكائه المتواصل، ويجهدهما بطلب الحنان، لكانت مريم حبلت، وأتتها بالمولود. هذا المولود الذي تشتهيه بعنف، وتهفو نفسها إليه بعماء إلى حدّ أنّها مستعدّة لأن تخنُق وتحرِق وتُدمِّر كلّ ما قد يحول بينها وبين حُلمها.

وذات مساء عادت مريم إلى البيت، فوجدت لويز بانتظارها وقد بدا عليها نفاد الصبر. ما إن فتحت الباب حتّى هرعت إليها وهي تمسك بيد ميلا، وعيناها متّقدتان، وقد ظهر عليها السهوم والتوتّر. بدت كما لو أنّها تبذل جهداً كبيراً لتتمالك نفسها من أن تقفز أو تصرخ. قضت اليوم بكامله وهي تفكّر في هذه اللحظة،

وبدت لها خطّتها مُحكمة. يكفي الآن أن توافق مريم، وتطاوعها، وترتمي في حضن بول.

«أريد أن آخذ الأطفال إلى المطعم. هكذا ستتعشّين أنت وزوجك بهدوء».

وضعت مريم حقيبة يدها على الأريكة، ولويز تلاحقها بعينيها، ثمّ اقتربت منها حتّى شعرت بأنفاسها، ولم تعد قادرة على التفكير. كانت لويز مثل طفلة، تهزّها موجة من اللهفة والحماس.

ردّت مريم: «لا أدري! لم نخطط لهذا، ربّما أرجأنا هذا الأمر إلى مرّة أخرى»، ومضت تنزع سترتها وهي تتّجه إلى غرفتها، لكنّ ميلا تمسّكت بها، وتدخّلت متوسّلة لتؤيّد طلب مربّيتها.

«أرجوكِ يا ماما، نريد أن نرافق لويز إلى المطعم».

ولم تجد مريم بدّاً من الاستسلام، لكنّها ألحّت على أن تكون هي من يؤدّي ثمن العشاء. وبينما شرعت تفتّش في حقيبة يدها عن النقود، أوقفتها لويز. «دعيني أدفع هذا المساء من فضلك. فأنا مَنْ دعوتهما».

كانت لويز تخفي في جيبها ورقة نقدية التصقت بفخذها، وراحت تتحسّسها بين الفينة والأخرى بأطراف أصابعها. ثمّ سارت هي والطفلين إلى حانة صغيرة كانت قد لاحظتها من قبل، يتردّد عليها الطلبة، وبخاصّة المولعون بشرب الجعة بثمن زهيد. لكنّها كانت هذا المساء خالية تقريباً. جلس صاحبها الصيني

خلف الكونتوار تحت أضواء النيون، وقد ارتدى قميصاً أحمر عليه رسومات بألوان مبهرجة، واستغرق في الحديث مع امرأة جالسة أمام زجاجة جعة، تلبس جوارب تغطّي كعبيها الضخمين. أما في الخارج، فلم يجلس غير رجلين يدخنان.

دفعت لويز بميلا إلى داخل المطعم، ففغمت أنفها رائحة التبغ والطبخ والعرق، رائحة أشعرتها بالغثيان، وخيّبت انتظارها. جلست ومضت تتفرّس القاعة الفارغة، والرفوف القذرة التي وضعت عليها عُلب من الكاتشب والخردل. لم تكن تتخيّل المطعم بهذه الصورة. كانت تظنّ أنّها سترى نساء جميلات في فضاء صاخب بالموسيقى والعشاق. عوض هذا جلست متهالكة إلى مائدة تراكمت عليها الدهون، وراحت تحدّق في شاشة التلفاز المثبّت فوق الكونتوار.

قالت لويز التي أجلست آدم على ركبتيها إنّها لا تشعر بالجوع. «أأختار لكما أوّلاً؟» لم تترك لميلا فرصة للإجابة وطلبت مقانق وبطاطس مقليّة، وأضافت: «سيقتسمان». وقبل أن يجيبها الصيني نزع قائمة الطعام من بين يديها بحركة فجائية.

طلبت لويز كأس نبيذ شربته بمهل، وشرعت تتحدّث مع ميلا بلطف. جلبت معها أوراقاً وأقلاماً وضعتها على المائدة. لكنّ ميلا لم تكن ترغب في الرسم، كما أنّها لا تشعر بجوع شديد، وبالكاد لمست طبقها. أمّا آدم فعاد إلى عربته، وشرع يفرك عينيه بأصابعه الصغيرة.

كانت لويز تجيل بصرها بين النافذة والشارع والكونتوار الذي يستند عليه صاحب الحانة، وتقضم أظافرها وتبتسم، ثمّ تشرُد.

ودّت لو تشغل يديها بشيء، وتركّز ذهنها بكامله على فكرة واحدة، لكنّ أفكارها كانت مشتّتة، وروحها مُثقلة. مسحت بيدها المشدودة مراراً سطح المائدة، كما لو أنّها تهمّ بجمع فتات خفيّ، وصقل ذلك السطح البارد. واستحوذت على ذهنها صور غامضة لا يجمع بينها شيء. وراحت الرؤى تتوالى في مخيّلتها بسرعة متزايدة، رابطة بين ذكريات وضروب من الأسى، بين وجوه واستيهامات لم يُكتب لها التحقّق أبداً. ما زالت تذكر رائحة البلاستيك في ساحة المشفى التي كانوا يخرجونها للنزهة فيها، وضحكات ستيفاني الصاخبة والمخنوقة في الآن نفسه، الشبيهة بعويل الضباع، ووجوه الأطفال المنسية، ونعومة الشعور التي داعبتها بأطراف أصابعها، والطعم الكلسي لحلوى التفاح التي عثرت عليها جافّة في قاع الحقيبة وأكلتها مع ذلك. وسمعت صوت برتران أليزار، ذلك الصوت الكاذب، وسرعان ما امتزجت به أصوات الآخرين، أصوات كلّ أولئك الذين أعطوها أوامر ونصائح وتعليمات، بما فيها صوت تلك المفوضة القضائية اللطيفة التي ظلّ اسمها منقوشاً في ذاكرتها: إيزابيل.

ابتسمت لميلا وودّت لو تواسيها. كانت تعلم أنّ الصغيرة توشك على البكاء. هي تعرف هذا الشعور، هذا العبء الذي يثقل الصدر، هذا الضيق الذي يسبّبه لها هذا المكان. وهي تعرف أيضاً أنّ ميلا قادرة على تمالك نفسها، والتحكم فيها، وأنّها تملك تهذيب البورجوازيين، وقادرة على الانتباه لأشياء تفوق سنّها. وطلبت لويز كأس نبيذ آخر. وبينما كانت ترتشفه، راحت تراقب الطفلة التي تحدّق في شاشة التلفزة، وتبيّنت خلف قناع

الطفولة ملامح أمّها. فحركات الطفلة البريئة تحمل في طياتها بذور عصبيّة امرأة ناضجة، وقسوة مشغِّلة صارمة.

خلّص الصيني المائدة من الكؤوس الفارغة والطبق نصف المملوء، ووضع الفاتورة المخربشة على ورق مسطّر. أمّا لويز فتسمّرت في مكانها تنتظر مرور الوقت، وتترقّب تقدّم الليل مفكّرة في بول ومريم وهما يستمتعان بهدوء الشقة الخالية، وبالعشاء الذي تركته على المائدة. لا شكّ في أنّهما أكلا واقفين في المطبخ، مثلما كانا يفعلان قبل ميلاد الطفلين. يسكب بول النبيذ لزوجته، وينهي كأسه. ها هي يده تداعب بشرة مريم وهما يضحكان. نعم، إنّهما من أولئك الذين يضحكون خلال المداعبات، عندما تستبدّ بهم الشهوة.

وانتهى الأمر بلويز أن قامت، وغادروا المطعم. تنفّست ميلا الصعداء. فقد بدأ يغالبها النوم، ورغبت في العودة إلى سريرها فوراً. أمّا آدم، فنام في عربته، وسوّت لويز الملاءة التي تغطّيه. ما إن يخيّم الظلام حتّى يخرج الشتاء البارد من مخبئه، ويتسلّل إلى الأجساد تحت الملابس.

تمسك لويز بيد الطفلة ويمشيان لفترة طويلة في مدينة اختفى منها الأطفال. ساروا بمحاذاة غران بولفار، ومرّوا أمام المسارح والمقاهي الحاشدة، ثمّ ساروا في أزقة تزداد عتمة وضيقاً، تُفضي أحياناً إلى ساحات صغيرة يدخّن فيها شباب الحشيش وهم مستندون إلى صناديق القمامة.

لم تكن ميلا تعرف هذه الأزقة، وهذه المنازل والمطاعم تبدو لها شديدة البُعد من البيت، فترفع إلى لويز عينين قلقتين،

وتنتظر منها كلمة مطمئنة. ألا تُعدّ لها المربّية مفاجأة؟ لكن لويز كانت تتقدّم وتتقدّم، ولا تخرج من صمتها إلا لتقول: «هيّا، تعالي!» وتضرب الطفلة كاحلها بالرصيف، وقد التوت أحشاؤها من الخوف، واقتنعت بأنّ شكواها لن تجدي شيئاً، بل قد تزيد الوضع تعقيداً. وأحسّت بأنّ المشاكَسة لن تفيد. وحين بلغوا إلى شارع مونمارت، راحت ميلا تنظر إلى فتيات تدخنّ أمام الحانات، فتيات يلبسن الكعب العالي، وتتحدّثن بصوت عالٍ حتّى إن صاحب الحانة نهرهنّ قائلاً: «هناك جيران هنا، ألن تغلقن أفواهكن؟». هكذا فقدت الطفلة كلّ المعالم، ولم تعد تدري أهي في المدينة نفسها، وما إذا كانت ستعود إلى بيتها، وما إذا كان والداها يعرفان أين توجد.

ووقفت لويز فجأة وسط شارع آهل. نظرت إلى الأعلى، وركنت العربة بمحاذاة جدار ثمّ سألت ميلا: «أي نكهة تريدين؟».

مضى الرجل الواقف خلف الكونتوار ينتظر بضجر جواب الطفلة. وقد كانت أصغر من أن ترى محتوى صناديق المثلجات، فوقفت على رؤوس أصابع قدميها وأجابت بتوتّر:

«بالفراولة».

عادت ميلا أدراجها إلى البيت في الليل وقد تشبّثت إحدى يديها بلويز بينما حملت الأخرى المثلّج الذي مضت تلعقه بين الفينة والأخرى، لكنّه سبّب لها صداعاً رهيباً. أغلقت عينيها بشدّة لعلّ الألم يبارحها، وحاولت التركيز على طعم الفراولة المسحوقة، وعلى قطع الفواكه الصغيرة التي تعلق بين أسنانها. وكان المثلّج يسقط في معدتها كندفٍ ثقيلة.

ركبوا في طريق العودة إلى البيت الحافلة. وسألت ميلا إن كان بإمكانها وضع البطاقة في آلة الأداء، كدأبها في كلّ مرّة تعتلي الحافلة، لكن لويز نهرتها: «لا داعي، لسنا في حاجة إلى بطاقة في الليل».

* * *

لمّا فتحت لويز باب الشقّة، وجدت بول مستلقياً على الأريكة ينصت لأسطوانة وقد أغمض عينيه، فهرعت إليه ميلا، وقفزت بين ذراعيه، وحشرت وجهها البارد في عنقه. تظاهر بعتابها لأنّها خرجت في وقت متأخّر، واستمتعت بالسهرة في المطعم مثل طفلة كبيرة. وأخبرهم بأنّ مريم استحمّت وآوت إلى فراشها مبكّراً. «هدّها العمل، بالكاد رأيتها».

شعرت لويز بالخيبة. كلّ مساعيها ذهبت سدى. أحسّت بالبرد وبألم في ساقيها. فقد صرفت آخر فلس معها بينما لم تكلّف مريم نفسها حتى انتظار عودة زوجها لكي تنام.

يشعر المرء بالوحدة مع الأطفال، فهم لا يكترثون لظواهر عالمنا، يحسّون بقساوته وسوداويته، ولكنّهم يتجاهلونه. تتحدّث إليهما لويز، فيشيحان عنها. تمسك بأيديهما وتقف إلى جانبهما، فينظران بعيداً كما لو أنّهما رأيا شيئاً آخر، أو عثرا على لعبة تغنيهما عن الاستماع. وهما لا يبديان الشفقة من التعساء.

جلست بجانب ميلا التي كانت مقرفصة على كرسي ترسم. تستطيع أن تظلّ مركّزة لساعة كاملة أمام الأوراق وكومة الأقلام، مستغرقة في التلوين، ومنتبهة لأبسط التفاصيل. ولويز يروقها أن تجلس بجوارها، تتطلّع إلى الألوان وهي تنتشر على الورقة، وتشهد صامتة تفتُّح ورود عملاقة في حديقة منزل برتقالي تنام فيه على العشب شخصيات ممشوقة ذات أيدٍ طويلة. ولا تترك ميلا مكاناً للفراغ، إذ تملأ السماء بسحب وسيارات طائرة وكرات منفوخة. وتسأل لويز:

«من تكون هذه؟».

فتضع ميلا إصبعها على إحدى الشخصيات العملاقة الباسمة، المستلقية بحيث تشغل معظم الورقة، وتقول:

«هذه؟ هذه ميلا».

لم تعد لويز تبحث عن العزاء في الطفلين، وبهتت الحكايات التي تسرد لميلا، وهو أمر تفطّنت له الصغيرة، إذ لاحظت أنّ الكائنات الأسطورية فقدت حيويّتها ورونقها، ونسيت الشخصيات الهدف من صراعها، ولم تعد قصصها غير سرد لتيه طويل، مقطّع الأوصال وغير منظّم. أميرات أملقن، وتنانين مريضة، ومناجاة أنانية لا يفهم منها الأطفال شيئاً، وتستنفد صبرهم. وتتضرّع إليها ميلا قائلة: «ابحثي عن حكاية أخرى»، فلا تعثر لويز على شيء، وتعْلَقُ في كلماتها كما لو كانت رمالاً متحرّكة.

قلّ ضحك لويز، ولم تعد تلعب مع الطفلين بنفس الحماس لعبة الخيل أو معارك الوسائد، مع أنّها تحبّهما وتمضي ساعات تتأمّلهما. تكاد تفيض عيناها لما ترى نظراتهما إليها أحياناً، طلباً لاستحسانها أو مساعدتها. وهي تحبّ على الخصوص الطريقة التي يلتفت بها آدم إليها ليُشهدها على ما يحرزه من تقدّم ويشعُرُ به من ابتهاج، ويُفهمها بأنّ في كلّ حركاته شيئاً موجّهاً لها وحدها. لشدّ ما تتمنى لو تقتات من براءتهما وحماسهما، لو تستطيع النظر من خلال عيونهما حين يريان شيئاً للمرّة الأولى، حين يفهمان كيفية إنجاز حركة من الحركات، ويرغبان في أن تتكرّر أمامهما إلى الأبد من دون أن يستحوذ عليهما الملل.

* * *

تترك لويز التلفاز مشغّلاً طوال اليوم. تشاهد ريبورتاجات مروعة، وبرامج بليدة، وألعاباً لا تفقه فيها شيئاً. فمنذ التفجيرات الإرهابية، منعتها مريم من أن تترك الأطفال أمام الشاشة، لكن

لويز لم تعبأ بكلامها. هي تعرف أنّ ميلا لن تذكر شيئاً أمام والديها، ولن تردّد ألفاظاً من قبيل: «مطاردة»، «إرهاب»، «قتلى». كانت الطفلة تشاهد بلهفة وصمت الأخبار التي تتعاقب. وحين تضجر، تلتفت إلى أخيها فيلعبان ويتشاجران. تدفعه على الجدار، فيصرخ قبل أن ينقضّ على وجهها.

لا تلتفت لويز إليهما، بل تظلّ متسمّرة تحدّق في الشاشة. لم يعد الخروج إلى الحديقة يستهويها، لأنّها لا ترغب في لقاء المربّيات أو مصادفة الجارة العجوز التي اضطرت إلى أن تتصاغر أمامها وتعرض عليها خدماتها. وراح الطفلان المتوتّران يدوران في الشقّة، ويتضرّعان إليها لكي تخرجهما إلى الهواء الطلق ليلعبا مع أصدقائهما، ويقتنيا كعكة بالشوكولا من متجر في الطرف الآخر من الشارع.

أثار صراخ الصغيرين أعصابها، فمضت تصرخ بدورها. أرهقتها جلبتُهما وصوتاهما الصاخبان، وأسئلتهما المرهقة، وضاقت ذرعاً برغباتهما الأنانية. سألتها ميلا مئات المرات: «متى سنخرج غداً؟» ولا تكاد لويز تفرغ من ترديد أغنية حتّى يتضرّعان إليها لكي تعيدها. يُلحّان على تكرار كلّ شيء: الحكايات والألعاب والحركات، ولويز نفد صبرها. لم تعد تطيق البكاء والنزوات والضحكات الهستيرية. تنتابها أحياناً الرغبة في الإمساك بعنق آدم وخضّه إلى أن يفقد الوعي. وتجهد نفسها لطرد هذه الأفكار من رأسها، فتنجح في التخلّص منها، لكن موجة قاتمة ولزجة كانت تغمرها بالكامل.

* * *

«**ينبغي أن يموت أحدهم، ينبغي أن يموت لِنَسْعد**».

تهدهد لويز خلال سيرها أغنياتٌ سقيمة، وتسكن فكرها جُمل لم تنشئها، وهي غير واثقة من أنّها تفهم معناها. تحجَّر قلبها بعد أن كسته السنوات بقشرة سميكة باردة حتى إنّ خفقانه بالكاد يسمع، ولم يعد يؤثّر فيها شيء. عليها أن تسلّم بأنّها لم تعد تعرف الحب، وأنّ قلبها استنفد كلّ ما يختزن من حنان، ويديها لم يعد لهما شيء تداعبانه. وسمعت نفسها تقول: «بسبب هذا سينزل بي العقاب، لأنني لم أعد أعرف كيف أحبّ».

توجد صور فوتوغرافية لتلك الأمسية. لم يجرِ تحميضها، ولكنّها موجودة في مكان ما، بداخل آلة من آلات التصوير. يظهر فيها الطفلان، آدم مستلّق شبه عار على العشب، ينظر جانباً بعينيه الزرقاوين وهو ساهم، تكاد نظرته تكون كئيبة رغم صغر سنّه. وفي صورة أخرى تظهر ميلا وهي تجري حافية في ممشى محفوف بالأشجار، ترتدي فستاناً أبيض رُسِمت عليه فراشات. ويظهر في صورة ثالثة بول حاملاً آدم على كتفيه، وميلا بين ذراعيه. أمّا مريم، فهي من التقطت الصورة، هي من انتزعت هذه اللحظة. بدا وجه زوجها مطموساً، وبسمته أخفتها إحدى رجلي الطفل. ويبدو أنّ مريم كانت تضحك هي أيضاً، ولم تفكر في أن تطلب منهم ألا يتحرّكوا ويثبتوا في أماكنهم للحظة. «سآخذ لكم صورة من فضلكم».

ومع ذلك فهي متعلّقة بهذه الصور التي التقطتها بالمئات، والتي تشاهدها في اللحظات الكئيبة. تمرّر أصابعها أحياناً على شاشة الهاتف حين تكون في الميترو، أو بين موعدين، أو حتّى خلال وجبة عشاء، لترى بورتريهات طفليها. وهي تعتقد أنّ

واجبها الأمومي يحتّم عليها تخليد هذه اللحظات، وإقامة الدليل على هذه السعادة التي مضت، دليل يمكن أن تعرضه ذات يوم على أنظار ميلا وآدم. ستستحضر ذكرياتها، فتأتي الصورة لتوقظ مشاعر قديمة وتفاصيل وأجواءَ نُسيت. لطالما قيل لها إنّ الأطفال سعادة عابرة، ورؤية زائلة، ومسخ أبدي. وجوه مستديرة تطبعها الجديّة من دون أن تثير الانتباه. وبذلك فكلّما سنحت لها الفرصة، تشاهد على شاشة هاتفها الآيفون طفليها اللذين يمثلان بالنسبة إليها أجمل منظر في الوجود.

دعاهم توما، صديق بول، إلى قضاء يوم في منزله الريفي الذي يخلو فيه إلى نفسه لتلحين أغانٍ، وإرواء شغفه الشديد بالكحول. وهو يربّي في حديقته خيولاً قزمة عجيبة، بالغة القصر، شقراء اللون، أشبه بممثلات أميركيات. ويتوسّط الحديقة المترامية التي لا يعرف توما نفسه حدودها، جدولٌ صغير. وبينما كان الطفلان يتناولان وجبة الغذاء، مضى الأبوان يشربان النبيذ مع مضيفهم. وضع توما على المائدة وعاء نبيذ، وراح يرتشف منه بلا توقف. «ليس بيننا غرباء، أليس كذلك؟ لذلك سنأكل ونشرب كما يحلو لنا».

ليس لتوما أطفال، لذلك حرص بول ومريم على عدم إرهاقه بقصص المربّية والتربية وعطلة الأسرة. وقد نسيا خلال هذا اليوم الربيعي الجميل هواجسهما، وبدت لهما همومهما كما هي، في حجمها الطبيعي: مشاكل بسيطة من مشاكل الحياة اليومية، تكاد تكون تافهة. ولم يعودا يفكران إلا في المستقبل والمشاريع والسعادة التي تلوح بشائرها في الأفق. فمريم واثقة من أنّ

باسكال سيعرض عليها في شهر سبتمبر المقبل أن تصير شريكته، وسيكون بإمكانها حينئذٍ أن تختار قضاياها، وتتخلّص من الأعمال الشاقة، وتعهد بها إلى المتمرّنين. أمّا بول فراح ينظر إلى زوجته وطفليه، وقال في نفسه إنّ زمن البؤس قد مضى، والمستقبل واعد.

قضا الطفلان يوماً رائعاً في اللهو والجري، وركبا الخيول القزمة، وأطعماها التفاح والجزر. نزعا الأعشاب الطفيلية مما يسميه توما بستان الخضر، رغم أنّه لم ينبت خضاراً قط. أمّا بول فأمسك قيثارته، ومضى يُضحك الجميع، لكنّهم صمتوا لمّا شرع يغنّي، تساعده مريم في دور الجوقة. وتعجّب الطفلان من أمر هؤلاء الكبار الذين يغنون كلمات من لغة غريبة لا يفهمانها.

وحين حلّ موعد العودة، أخذ الطفلان يبكيان، وارتمى آدم أرضاً رافضاً الانصراف. أمّا ميلا التي كانت هي أيضاً منهكة، فراحت تبكي بين ذراعي توما. لكنّهما ما كادا يركبان السيارة، حتى غلبهما النوم. وخيّم الصمت على مريم وبول. استغرقا في تأمّل حقول الكولزا المذهلة تحت أشعّة الغروب التي غمرت بلونها الأصفر محطات الاستراحة والمناطق الصناعية ومراوح إنتاج الكهرباء الرمادية، مُضفيَة بذلك على المناظر مسحة شاعرية.

* * *

لمّا وجد بول -هو من لا يطيق اختناق حركة السير- المرور شبه متوقّف في الطريق السيار بسبب حادثة، قرّر أن يسلك طريقاً فرعية للوصول إلى باريس. وقال في نفسه: «ما عليّ إلا أن أتّبع

تعليمات نظام تحديد المواقع». وهكذا توغّلوا في أزقة معتمة تحفّ بها منازل ريفية بشعة، مغلقة النوافذ. وأغفت مريم. كانت أوراق الأشجار تلمع تحت مصابيح الإنارة العمومية مثل آلاف الجواهر السوداء. وأخذت مريم تفتح عينيها بين الفينة والأخرى خوفاً من أن يُغفي بول أيضاً، لكنّه طمأنها، فعادت إلى النوم.

أيقظتها أصوات زمّارات السيارات، ففتحت عينيها قليلاً ولم تستطع، بسبب الضباب الخفيف وتشوّش ذهنها بالنوم، أن تتعرّف لأوّل وهلة إلى الشارع الذي كانت السيارة عالقة فيه، فسألت بول: «أين نحن؟» لكنّه لم يجب. كان مشغول البال يحاول أن يخمّن سبب تعثّر حركة المرور. التفتت مريم، وكانت ستعود للنوم لولا أنّها رأت هنالك، على الرصيف المقابل، هيئة امرأة شديدة الشبه بلويز، فقالت لبول وهي تشير بيدها: «انظر!» إلا أنّ ذهن بول كان مركّزاً على زحمة المرور، يدرس الإمكانات المتاحة للإفلات من الزحمة والعودة أدراجه. فهو يوجد في ملتقى طرق تأتيه السيارات من كلّ جانب، وتَعْلَق. كانت الدراجات النارية تجد لها منفذاً، والراجلون يعبرون بين العربات، وأضواء المرور تنتقل من الأحمر إلى الأخضر في بضع ثوان، ولا أحد يتقدّم.

«انظر هناك إلى تلك المرأة، أليست لويز؟».

ارتفعت مريم قليلاً عن مقعدها لعلّها ترى وجه المرأة التي تسير في الجانب الآخر من ملتقى الطرق. كان بإمكانها أن تفتح النافذة وتناديها، لكنّها خشيت من أن تبدو مضحكة، ثمّ إن المربّية لن تسمعها على كلّ حال. رأت مريم شعرها الأشقر والعقيصة على رقبتها ومشيتها الرشيقة المترنّحة التي لا تخطئها العين. تتقدّم

ببطء وهي تحدّق في واجهات متاجر هذا الشارع. ثمّ اختفت وتلاشى جسدها الضئيل بين المارة، جرفه حشد من الناس كانوا يضحكون ويلوّحون بأياديهم. ثمّ ظهرت من جديد في الجانب الآخر من معبر الراجلين كما لو كان المشهد مقتطفاً من فيلم قديم بهتت ألوانه، واتّخذت فيه باريس صورة لا واقعية بسبب العتمة. بدت لويز بطوق الكلودين الذي لا يفارقها، وتنورتها الطويلة، أشبه بشخصية أخطأت قصتها، ووجدت نفسها في عالم غريب حُكِم عليها فيه بالتيه الأبدي.

زمّر بول بغضب، فاستيقظ الطفلان مذعورين. أخرج يده من النافذة، ونظر إلى الخلف، ثمّ انعطف إلى زقاق متعامد بسرعة البرق وهو يرغي ويزبد. ودّت مريم لو تصرفه عن ذلك، وتقول له إنّهما غير مستعجلين، ولا داعي للغضب. لكنّ الحنين استبدّ بها فراحت تتأمّل لويز وهي متسمّرة تحت عمود الإنارة، تنتظر شيئاً ما، وتهمّ باجتياز أحد الحدود، والاختفاء خلفه.

* * *

استوت مريم في جلستها على المقعد، ومضت تنظر من جديد أمامها مشوّشة البال كما لو أنّها صادفت ذكرى من الذكريات، أو معرفة من معارفها القدامى، أو عاشقاً من عشاق الشباب. وتساءلت عن الوجهة التي تقصدها لويز، وعمّا إذا كانت هي فعلاً، وماذا تفعل هناك. وتمنّت لو أسعفتها الظروف لتراقبها من خلال النافذة لفترة أطول، تراقبها وهي تعيش حياتها. فمشاهدتها بالصدفة في مكان بعيد عن عالمها المألوف، أجّج في

نفسها فضولاً جامحاً. وحاولت لأوّل مرّة أن تتخيّل على نحو ملموس كيف تكون لويز حين تغيب عنهم. ولمّا سمع آدم أمّه تنطق اسم المربّية، تطلّع هو أيضاً إلى النافذة، وهتف وهو يشير إليها بأصبعه، كما لو أنّه يجد صعوبة في أن يتصوّر أنّ لها حياة أخرى في مكان غير البيت، وأنّ بإمكانها أن تسير من دون أن تستند إلى عربة أو تمسك بيد طفل: «ها هي مربيتي» ثم سأل: «إلى أين هي ذاهبة؟».

فأجابت مريم:

«ذاهبة إلى بيتها».

كانت النقيبة نينا دورفال مستلقية على فراشها مفتوحة العينين بشقّتها الواقعة في شارع ستراسبورغ. الليل ساكن، وباريس خالية تقريباً من سكانها في شهر أغسطس الماطر هذا. غداً في الساعة السابعة والنصف، أيّ الساعة التي اعتادت أن تلتحق فيها لويز بالطفلين كلّ صباح، ستُنزَع الأختام عن باب الشقة الواقعة في شارع هوتفيل، ويُعمَد إلى إعادة تمثيل الجريمة. وقد أخطرت نينا قاضي التحقيق والنائب العام والمحامين بذلك. وقالت: «أنا من سيؤدّي دور المربّية». لا أحد يجرؤ على معارضتها، فهي تعرف هذه القضية أفضل من غيرها، بحكم أنّها أوّل من وصل إلى مسرح الجريمة بعد أن تلقت مكالمة روز غرينبرغ. سمعت أستاذة الموسيقى تصرخ في الهاتف: «المربية قتلت الطفلين!».

وبينما كانت الشرطية تركن سيارتها ذلك اليوم أمام العمارة، انطلقت سيارة الإسعاف بالطفلة الصغيرة نحو أقرب مشفى. وكان الشارع غاصّاً بالفضوليين، لفتت انتباههم صفارات سيارات الشرطة، ومجيء الإسعاف، وشحوب ضباط الشرطة. كان المارّة يتظاهرون بأنّهم ينتظرون شيئاً، يسألون ويقفون متسمّرين أمام باب

المخبزة أو تحت السقيفة. رفع رجل يده والتقط صورة لمدخل العمارة، فأمرت النقيبة نينا دورفال بطرده.

والتقت النقيبة في سُلّم العمارة برجال الإسعاف وهم يحملون الأم. أمّا المتهمة، فبقيت في الأعلى مغمى عليها. كانت تمسك في يدها سكّيناً صغيراً بمقبض من الفخار الأبيض، فأمرت: «أخرجوها من الباب الخلفي».

ثمّ دخلت إلى الشقة، ووزّعت المهامّ على الحاضرين، ثمّ راحت تتابع ضبّاط الشرطة العلمية في بزّاتهم البيضاء وهم يقومون بعملهم. أزالت قفازيها في الحمام، وأحنت على حوض الاستحمام. أدخلت في بادئ الأمر رؤوس أصابعها في الماء العكر البارد، ومضت تشقّ بها الماء وتحركه، فجرفت الأمواج لعبة عبارة عن مركب قراصنة. لم تستطع إخراج يدها من الماء، كما لو أنّ شيئاً شدّها إلى الأسفل، فغطست ذراعها إلى المرفق ثمّ إلى الكتف، وفي تلك الأثناء دخل أحد المحقّقين فوجدها على هذه الحال، مقرفصة وقد ابتلّ كمّها، فطلب منها أن تخرج لأنّه سيقوم بمسح المكان.

طافت نينا دورفال في الشقة وجهاز تسجيل قرب فمها تصف فيه المكان ورائحة الصابون والدم، وصخب التلفزة المشغّلة وعنوان البرنامج. لم تغفل أيّ تفصيل: كوّة آلة الغسيل المفتوحة التي يتدلّى منها قميص مكمّش، وحوض المطبخ الممتلئ، وملابس الطفلين المتناثرة على الأرض، وصحنا البلاستيك الورديان الموضوعان على المائدة حيث توجد بقايا الغذاء. وصُوِّرت المعكرونة وقطع اللحم المدخّن. وحين تعرّفت نينا

لاحقاً إلى تفاصيل قصة لويز، وسمعت أسطورة هذه المربية الممسوسة، استغربت من الفوضى التي كانت سائدة في الشقّة.

أرسلت الضابط فيرديي إلى محطّة الشمال لكي يأتي ببول الذي كان مسافراً. وقالت في نفسها إنّه سيعرف كيف يتلطّف في إخباره بالحادث. فهو رجل ذو خبرة كبيرة، وسيعثر على الكلمات المناسبة ليواسيه ويهدّئه. وقد وصل الضابط إلى المحطة قبل الموعد، فانتحى جانباً في مكان بعيد عن تيار الهواء، وراح يراقب وصول القطارات وقد ألحّت عليه الرغبة في التدخين. رأى مجموعة من الركاب ينزلون من إحدى العربات، ويندفعون في جماعات. لا شكّ في أنّهم يهرولون ليلحقوا بقطار آخر سينطلق في تلك الأثناء. واستغرق الضابط في النظر إلى هذا الحشد المتصبّب عرقاً، وإلى النساء ذوات الكعوب العالية اللواتي يضممن إليهن حقائبهن المحمولة، وإلى الرجال وهم يصرخون: «تحركوا!». ثمّ وصل القطار القادم من لندن أخيراً. كان بإمكان الضابط فيرديي أن ينتظر أمام سيارة بول، لكنّه آثر الوقوف عند طرف الرصيف. ورأى أب الطفلين الهالكين قادماً نحوه وقد وضع سماعتين على أذنيه، حاملاً في يده حقيبة صغيرة. لم يهبّ للقائه. أراد أن يترك له بضع دقائق إضافية، بضع ثوان قبل أن يُسلِمه لليل لا نهاية له.

أشهر الشرطي بطاقته، وطلب منه أن يتبعه. ظنّ بول في البداية أنّ الأمر يتعلّق بخطأ.

* * *

أعادت النقيبة دورفال بناء مجرى الأحداث أسبوعاً بعد

أسبوع. فرغم صمت لويز التي لم تستعد وعيها بعد، ورغم الشهادات المتطابقة حول هذه المربية المثالية، قالت في نفسها إنّها ستعثر على مكمن الخلل. أقسمت على أن تفهم ما وقع خلف الأبواب الموصدة في عالم الطفولة السرّي الدافئ هذا. استدعت وفاء إلى مقر الإدارة الجهوية للشرطة القضائية بباريس، واستجوبتها. لم تستطع الخادمة الكلام من شدة البكاء، وما لبث صبر الشرطية أن نفد. قالت لها إنّها تهزأ من وضعيتها وأوراقها وعقدة عملها، وبوعود لويز وسذاجتها هي. ما تريد أن تعرفه هو ما إذا كانت التقت بلويز ذلك اليوم. حكت وفاء أنّها جاءت ذلك الصباح إلى الشقّة، دقّت الجرس، فواربت لويز الباب. «كما لو أنّها تخفي شيئاً». لكنّ ألفونس تسلّل من بين ساقيها ولحق جارياً بالطفلين اللذين كانا ما زالا بلباس النوم جالسين أمام التلفاز. «حاولتُ إقناعها بأن نخرج للتنزه، ولا سيما أنّ الجو كان جميلاً والأطفال يشعرون بالملل». لكن لويز صمّت أذنيها. «لم تتركني أدخل، فناديت على ألفونس الذي عاد مُحبَطاً، وانصرفنا».

لكن لويز لم تلزم الشقة. وروز غرينبرغ حاسمة بهذا الخصوص. فقد التقت المربية في ردهة العمارة ساعة قبل قيلولتها، أيّ قبل ساعة من ارتكاب الجريمة. من أين جاءت؟ إلى أين ذهبت؟ كم من الوقت قضت في الخارج؟ جاب رجال الشرطة الحيَّ حاملين في أيديهم صورة لويز، وسألوا كلّ السكان، واضطروا إلى إسكات الكذابين والمنزوين الذين يعيشون بمفردهم، وينسجون القصص لتزجية الوقت. ذهبوا إلى الحديقة الصغيرة وإلى مقهى بارادي، ومشوا في ممرّات شارع فوبورغ سان ديني،

واستجوبوا التجار، ثمّ عثروا على تسجيل فيديو بالسوق الممتاز. وقد عرضت النقيبة هذا التسجيل مئات المرات، وتأمّلت مشية لويز الهادئة في مختلف الأجنحة إلى أن أصابها الدوّار. لاحظت يديها الصغيرتين اللتين حملتا حزمة علب حليب وعلبة بسكويت وزجاجة خمر. ويظهر الطفلان في هذا التسجيل وهما يجريان من جناح إلى آخر من دون أن تأبه بهما المربّية. أسقط آدم علباً، واصطدم بامرأة تدفع عربة، بينما راحت ميلا تحاول التقاط بيضات الشوكولا. أما لويز فكانت هادئة، لا تفتح فمها، ولا تناديهما. ثمّ توجّهت إلى الصندوق، فتبعاها ضاحكين، وارتميا بين ساقيها، ومضى آدم يسحب تنّورتها، لكنّها تجاهلته، وبالكاد ظهرت عليها بعض علامات الضيق استنتجتها الشرطية من شدّ شفتها، ونظراتها الخاطفة المُختَلسة. وقالت الشرطية في نفسها إنّ لويز أشبه بتلك الأمّهات المزدوجات الشخصية اللواتي يُصادَفن في الحكايات، واللواتي لا يتورّعن عن هجر أبنائهن في ظلام الغابة.

على الساعة الرابعة بعد الزوال أغلقت روز غرينبرغ مصاريع النوافذ، ومشت وفاء إلى الحديقة حيث جلست على أحد المقاعد، وأنهى إيرفي خدمته. في هذه الساعة بالضبط توجّهت لويز إلى الحمام. على نينا دورفال أن تكرّر الحركات نفسها غداً: تفتح الصنبور، تترك يدها تحت الماء المتدفّق لتجسّ حرارته مثلما كانت تفعل مع صغارها في طفولتهم، ثمّ تقول: «تعالوا يا أطفال للاستحمام!».

كان عليها أن تسأل بول ما إذا كان آدم وميلا يحبّان الماء، وما إذا كانا يقاومان قبل نزع ملابسهما، ويستمتعان باللهو بلُعبهما

في الماء. وعلّقت النقيبة «قد يكون نشب بينهما شجار. هل تظنّ أنّ الاستحمام في الساعة الرابعة بعد الزوال أثار مخاوفهما أو بالأحرى استغرابهما؟». عرضوا على الأب صورة سلاح الجريمة، وهو عبارة عن سكين مطبخ عادي، لكنّه كان من الصغر بحيث استطاعت لويز إخفاءه بلا شكّ في راحتها. وسألته نينا إن سبق له أن رآه، وما إذا كان موجوداً في المطبخ أم أنّ لويز اشترته، ومن ثمّة ارتكبت الجريمة عن قصد وتعمّد. وقالت له: «فكّر على مهلك»، لكنّ بول لم يحتج إلى تفكير طويل. فهذا السكين أهداه لهما توما عند عودته من اليابان. سكّين ذو مقبض من الفخار، حادّ جداً، تكفي لمسة منه لقطع أطراف الأصابع. سكّين سوشي أعطته مريم يورو مقابله درءاً للنحس وسوء الحظ. «لكنّنا لم نستعمله قط. حفظته مريم في مكان عالٍ بالخزانة حتّى لا يصل إليه الأطفال».

بعد شهرين من التحقيقات، ليلَ نهارٍ، ومطاردة ماضي هذه المرأة، بدأت نينا تعتقد أنّها تعرف لويز أكثر من أيّ شخص آخر. استدعت بيرتران أليزار. أخذ الرجل يرتعش على مقعده في مقرّ الشرطة، والعرق يتصبّب من جبينه، ويغمر بقع النمش في وجهه. تركته الشرطية ينتظر في الممرّ وراحت تفتّش شقّة لويز. وجدت الأدراج فارغة، وزجاج النوافذ في غاية النظافة. ولم يعثروا على شيء، لا شيء غير صورة قديمة لستيفاني وبعض الأظرفة التي لا تزال مغلقة.

أنفذت نينا دورفال يديها في روح لويز العفنة. أرادت أن تعرف عنها كلّ شيء. ظنّت أنّها تستطيع اختراق جدار الصمت

الذي ضربته على نفسها. استجوبت آل روفيي وفرانك والسيدة بيران وأطباء مشفى هنري موندور؛ حيث أقامت لويز ردحاً من الزمن لعلاج اضطراباتها النفسية. وقرأت لساعات مفكّرتها ذات الغلاف المنمق، وحلمت ليلاً بهذه الرسائل الغريبة، والأسماء المجهولة التي واظبت على تسجيلها بعناية فائقة. وعثرت النقيبة على بعض جيران لويز القدامى حين كانت تقطن في منزل بوبيني، واستجوبت مربّيات الحديقة، لكنّها لم تعثر على أحد يعرف خباياها. «لم تكن علاقتنا تتجاوز تبادل التحيّة، لا أقل ولا أكثر».

ثمّ نظرت إلى المتّهمة وهي نائمة على سريرها الأبيض، وطلبت من الممرّضة مغادرة الغرفة. أرادت أن تستفرد بهذه الدمية العجوز. كانت تكسو عنقها ويديها ضمادات بيضاء عوض المجوهرات. وتفرّست النقيبة تحت ضوء النيون جفنيها الشاحبين، وأصول شعر فودَيها الأشيب، والنبضات الضعيفة في الشريان الواقع تحت شحمة أذنها. وحاولت أن تقرأ شيئاً على صفحة هذا الوجه المنهَك، وهذه البشرة الجافة التي بدت تجاعيدها كالأخاديد. لم تلمس النقيبة الجسد الهامد، بل جلست وحاولت التحدّث إلى لويز مثلما يتحدّث المرء لطفل يتظاهر بالنوم. قالت: «أعرف أنّك تسمعينني».

ليست هذه هي المرّة الأولى التي تقوم فيها نينا دورفال بإعادة بناء جريمة. هي تعلم من خلال خبرتها أنّ إعادة البناء هذه تعمل أحياناً ككاشف، مثل شعائر الفودو التي تنجلي فيها الحقيقة من خلال الغشية والألم، وتُسلَّط فيها على الماضي أضواء جديدة. فما إن تظهر الأحداث على الخشبة حتّى يعمل السحر عمله،

فينجلي تفصيل من التفاصيل، ويكتسب أخيراً تناقض من التناقضات معنى. ستتخطى غداً وهي داخلة إلى العمارة الموجودة في شارع هوتفيل رسوم أطفال وباقات ورد ما زالت تذبل عند الباب.

ستحاذر لكي لا تدوس الشموع، وتستقلّ المصعد. وستكون تلك الشقّة التي لم يتغيّر فيها شيء منذ ذلك اليوم من أيام مايو، ولم يدخلها أحد بحثاً عن أغراض أو وثائق. ستكون هي الخشبة التي ستُمثَّل عليها هذه المسرحية المقيتة. هناك ستدقّ نينا دورفال الضربات الثلاث.

ستستسلم لموجة القرف، وسيجرفها الاشمئزاز من كلّ ما يوجد في تلك الشقّة: آلة الغسيل، وحوض المطبخ القذر واللُّعب التي غادرت عُلَبَها، وجاءت لتموت تحت المائدة، والسيف المنتصب نحو السماء، والأذن المتدلّية. ستكون هي لويز، لويز التي تحشر أصابعها في أذنيها لتتخلّص من الصراخ والنحيب. لويز التي تجوب الشقّة ذهاباً وإياباً بين الغرفة والمطبخ، وبين الحمام والمطبخ، وبين القمامة ومجفّف الملابس، وبين السرير وخزانة المدخل، وبين الشرفة والحمام. لويز التي تعود وتبدأ من جديد، لويز التي تنحني وتقف على أطراف أصابع قدميها، لويز التي تأخذ سكيناً من إحدى الخزانات، لويز التي تشرب كأس نبيذ أمام النافذة المفتوحة وهي تضع قدمها على جدار الشرفة القصير وتقول: «تعالوا يا أطفال للاستحمام!».

أغنية هادئة

قرّرت مريم، وهي أمّ لطفلين، أن تستأنف العمل في أحد مكاتب المحاماة رغم تحفّظ زوجها. وهكذا شرع الزوجان في البحث عن مربية. بعد عملية انتقاء مُحكَمَة، وقع اختيارهما على لويز التي اكتسبت بسرعة حبّ الطفلين، واحتلّت بالتدريج مكانة مركزيّة في البيت. وبذلك تنشأ علاقة تبعيّة متبادلة تتقوّى شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي بمأساة.

من خلال وصف دقيق للزوجين وكذا لشخصية المربية الآسرة والملغزة، تنكشف أمامنا الكثير من قضايا عصرنا كمعنى الحب والتربية، والعلاقة بين السيطرة والمال، وشيوع الأفكار المسبقة الطبقية والثقافية...

يضفي أسلوب ليلى سليماني القوي والصارم، الذي تتخلّله مقاطع شاعريّة سوداويّة، على النص مَسحة من التشويق الخلاب منذ الصفحات الأولى.

❖ ❖ ❖

«قصّة مثيرة، رائعة ولاذعة في نفس الوقت، تصوِّر صراعاً عنيفاً مُستلهَماً من وقائع الحياة اليومية».

مجلة لوباريزيان

❖ ❖ ❖

ليلى سليماني كاتبة وصحافية مغربية-فرنسية، من مواليد الرباط عام 1981. **أغنية هادئة** هي روايتها الثانية. بفوزها بجائزة غونكور، تصبح هذه الكاتبة الشابة أول عربية تفوز بهذه الجائزة المرموقة، بعد المغربي الطاهر بنجلون عام 1987 واللبناني أمين معلوف عام 1993.

السعر: 70 درهماً مغربياً

ISBN 978-9981-72-035-0

9 789981 720350

لوحة الغلاف للفنان بول كلي

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com